الأسس النظريّة لسيميائيّات العالم الطبيعيّ.

الدكتور: أحمد يوسف
جامعة السلطان قابوس/ سلطنة عمان

((...الإنسان مدني بالطبع وكان لا يعرف كل منهم ما يريد صاحبه من الأفعال والتروك إلا بعلامة تدل على ذلك. وتلك العلامة إما تحريك جسم من الأجسام المنفصلة عنه أو تحريك بعض أعضائه، فيجعل لكل معنى حركة خاصة...))

ابن القيم الجوزية

مقدمة:

نبّه الأسلاف على موضوع العالم الطبيعيّ حينما أكّدوا مدنيّة الإنسان بالطبع، وحاجته إلى بني جنسه في التواصل، ورأوا أنّ سبيل إلى ذلك يمرّ عبر العلامات التي بها يقف الإنسان على مقصود مخاطبه. وتحصل بتحريك عضو من أعضاء جسمه، فتكتسي هذه الحركات معاني عبر المواضعات الاجتماعيّة والمحددات الثقافيّة. وقد خصوا هذه العلامات بالسمع والبصر بوساطة جارحتيْ الأذن والعين.((إما تحريك جسم من الأجسام المنفصلة عنه أو تحريك بعض أعضائه، فيجعل لكل معنى حركة خاصة ومعلوم أن في الأول من العسر والمشقة وعدم الإحاطة بالتعريف ما يمنع وضعه فكان تحريك الأعضاء أسهل وأدل وأعم))[1]. فوضعوا سمات لهذه الحركات الجسمانيّة تقوم على معايير السهولة والدلالة والتعميم والاقتصاد في الجهد.

وهم بذلك يكونون قد وقفوا على فهم طبيعة الأنساق السيميائيّة للتواصل من غير العلامات اللسانيّة، وانتهوا فيما انتهوا إليه من أن النسق اللسانيّ يبقى أهم الأنساق على نحو ما أشار إلى ذلك دو سوسير في محاضراته. بيد أنّهم لاحظوا أن السمع أقوى الحواس؛ لكونه يحيط بالجهات الست، وكثيرا ما ورد السمع القرآن الكريم إفرادًا يليه البصر جمعًا؛ لهذا كانت الأذن ((أعم والإنسان إليه أحوج وكان أولى هذه الأعضاء بأن يجعل حركاتها دالة

معرفة هو اللسان؛ لأن حركته أخف وأسهل وتنوعها أعظم وأكثر من تنوع حركة غيره وترجمته عما في القلب أظهر من ترجمة غيره ويتمكن المعرف بحركاته من حركات مفردة ومؤلفة يحصل بها من الفرق والتمييز ما لا يحصل بغيره كان أقرب الطرق إلى هذا المقصد هو الكلام الذي جعله الله سبحانه في اللسان وجعله دليلا على ما في الجنان وجعل ذلك من دلائل ربوبيته ووحدانيته وكمال علمه وحكمته. قال الله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْأِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}[الرحمن4-1] وقال تعالى {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد10-8]))[2]. فالعينان واللسان والشفتان أدوات للتواصل، فبهما تحصل الهداية أو الضلال. وأما التفاضل بينهما فأمر مختلف حوله، وإنْ كانت لسانيّات دو سوسير قد فضلت النسق اللسانيّ على سائر الأنساق السيميائيّة الأخرى.

من المعلوم لدى أهل الاختصاص أن السيميائيّات المحايثة ذات المنزع البنوي تعاملت مع المرجع على أنه مفهوم ليس له حظ في حقل اهتمامها؛ ولا ينتمي إلى عالم اللسان مقتفية آثار دي سوسير؛ وعليه فإنّ متصورات سيميائيّات العالم الطبيعيّ (monde naturel) تتجلى على صعيد التعبير، ويُخْبَر عن هذا العالم بوساطة الإنسان الذي يضفي عليه قصدًا، فيتحقق وجوده في عالم الدلالة. فالطبيعيّة التي نسم بها العالم يعرّفها الجرجانيّ بأنّها ((عبارة عن القوة السارية في الأجسام بها يصل الجسم إلى كماله الطبيعيّ))[3]. واستعمال الجسم بدل الجسد دقيق في الاستعمال بخلاف ما هو شائع ذائع بين من لا يقفون على الفروق بينهما. بل يمكن أن يقود اللسانيّات حسب تصوّر بنفينست[4] إلى إلقاء الضوء على عمل العقل في إجراءاته العمليّة.

فالعالم الذي نسمه بالطبيعيّ كما يقول صاحبا معجم السيميائات: ((عالم الحسّ المشترك بوصفه سيميائيّات طبيعيّة))[5]، فمجرد إدراكه يصبح إنسانيًّا، وتتمثل أهميته في السيميائيّات أنه يساعدنا مثلًا على استكشاف دلالات التجارب الإبداعيّة والفنيّة، ويفسّر لنا ((سيرورة انتشار التشخيصيّة والطابع "التمثيليّ"لكل تجلٍّ هوويّ حيث يصبح الجسد المصاب، بفضل قوّته التشخيصيّة، مركز المرجعيّة للإخراج الهوويّ كلّه))[6]. وهذا يرسم لنا مسار تطور السيميائيّات السرديّة من حيث إنّها مشروع علميّ، تدرجت من الوقوف على الأفعال إلى مدارسة الانفعال الذي خص بها غريماس وفونتاني الأهواء

من حيث إنّها أحوال للنفس.

وُصِفت هذه السيميائيّات بأنها سيميائيّات كبرى (ماكروسيميائيّات)[7] متضمنة العالم الطبيعيّ واللغات الطبيعيّة[8]، ومرتبطة بمفهوميْ" المرجع" و" الإحالة". ومن منظور السيميائيّات المحايثة؛ فإن الإحالة على هذا العالم ما ينبغي لها أن تكون برانيّة؛ وإنما يُتعامل معها على أنها جوانيّة. فعندما نكون ضمن السياق اللسانيّ فنحن أمام إحالة النص، وأنّ العناصر المكوّنة لهذا السياق يطلق عليها" مراجع"، وهي تأخذ معنى العائد. وهذا موضوع أشبعته لسانيّات النص بحثًا ودرسًا؛ إذ إن المسألة كما أسلفنا القول تنصرف إلى داخل النص لا خارجه بما في ذلك محفل التلفظ[9].

يتقصّد الهدف من مناقشة" الإحالة" و" المرجع" دراسة إنتاج الإيماءات والحركات في أثناء التواصل والتفاعل بين المتخاطبين سواء أكان ذلك بين الإنسان والآلة أم بين البشر الذين يصطنعون لغة الإشارات في إنتاج المعنى. وينبه غريماس وكورتاس على أن الإحالة في اللسانيّات السيميائيّة لا تشير إلى العناصر الثابتة في العالم الطبيعيّ إلّا ما استدعته مقتضيات التلفظ، أما إذا امتدت الإحالة إلى العلاقة بين الخطابات المختلفة فحينئذ نكون أمام واقعة التناص[10].

تعدّ الإحالة محصلة لشكل من أشكالا لتضايف[11] بين سيميائيّتين تتمثل في اللغة الطبيعيّة، والثانية تتمثل في العالم الطبيعيّ المخصوص بالأفعال الجسمانيّة التي تنتظم لتكون مجالًا للإدراك. فالتوافق بين تَيْن السيميائيّتين أبعد من أن تكون مجرد تقرير بسيط؛ لأنّها خاضعتان لتنوعات ثقافيّة عميقة تتفاعل مع ثقافات أخرى؛ ولكن يتطلب الإخبار عن العالم الطبيعيّ- في كل الأحوال- شروط تنظيم المعنى انطلاقا من الإحساس. فبين الحسّ والمعنى وشائج قربى، وبينهما تطابق على صعيد الصوت والرسم (sens).

الإشكال:

يمثل تقطيع العالم الطبيعيّ إلى وحدات داخل حدود اللغة الطبيعيّة أكبر صعوبة تواجه مثل هذه الدراسات، ولعل جوهر الإشكال كامن في السؤال الآتي:

كيف يتحول إدراك الجسم[12] إلى موضوع العالم والقيمة الدلاليّة لحركة الإنسان، وتمثيله للغة الإيمائيّة، ثم اختزالها إلى رموز، وتجاوز الاعتقاد بأنّ الإيمائيّة ذات طبيعة آليّة

يغلب عليها الحشو والإطناب[13] بالقياس إلى الصوت؟

إنّ الجسم- في نظر غريماس- موضوع مدرك ومجاور للموضوعات الأخرى، ويكتسي مصدره من الإيمائيّة التواصليّة سواء أكانت تعبيرا أم لعبا[14]. فضّل غريماس وكورتاس من جانبهما البحث عن تقطيع العالم الطبيعيّ انطلاقا من مقولات اللغة؛ ومن ثم فقد مالا ميلا واضحا إلى دفع سيميائيّات العالم الطبيعيّ إلى سعة سيميائيّات الثقافات[15]. ولكن استحالة ظهور تقطيع النص الإيمائيّ إلى وحدات حاملة للدلالة يبقى التحدي الأكبر أمام موضوع " سيميائيّات العالم الطبيعيّ" قياسا إلى تحليل الدلالة في اللغات الطبيعيّة. إن هذه الصعوبة تبقى عصيّة على التذليل في نظر غريماس ما دمنا أسرى لمنظور مشاهد- مرسل. فالدلالة لديه أفق يلوح أمام ناظرنا. فللإنسان القدرة على إنتاجها لنفسه وللعالم الإنسانيّ[16].

ولا يسعنا التعامل مع العالم الطبيعيّ بمساريْه الأنطولوجيّ والدلاليّ إلا النظر إليه من طبيعة الأشكال الرمزيّة التي تعد قوام فلسفة أرنست كاسيرر. فالمبدأ الرمزيّ يعد بمثابة المفتاح للولوج إلى عوالم الأنطولوجيّا والدلالة وفهم أنساقها الرمزيّة. وهذا يقتضي بناء لغة رمزيّة واصفة للغة الإيمائيّة من أجل تأسيس دلاليّات في سبيل الوصول إلى سيميائيّات عامة. كل هذه التعقيدات النظريّة نريد أن نقترب من تخومها، ونريد للقارئ أن يدرك أين يتنزل هذا البحث الذي يعي وعيًا متبصّرًا، سيميائيّات العالم الطبيعيّ كما بسطها غريماس بسطًا لا يكاد يمرق من تصوّره للمشروع السيميائيّ.

ولكننا لا نخفي انحيازنا إلى" البذخ الفينومينولوجيّ" في فهم العالم الطبيعيّ من منظور السيميائيّات العامة، والإرث الفلسفيّ الذي تأمّل موضوع الطبيعة بدْءًا من فلاسفة الطبيعة ما قبل سقراط، ووصولًا إلى الفلسفة المعاصرة؛ ولا سيما الفينومينولوجيّة منها على وجه الخصوص. علمًا بأنّ سيميائيّات مدرسة باريس شديدة الحذر، وتبدي يقظة منهجيّة أمام أيّ محاولة لتحوّل خطابها إلى فلسفة[17]، ونحن لا نشايع هذا الرأي الموغل في التوجّس مما هو فلسفيّ أو نفسيّ؛ لأن الخطاب الواصف للسيميائيّات ينحو منحى لغة الفلسفة والتجريد على نحو ما نقف عليه في سيميائيّات الأهواء أو السيميائيّات الأمريكيّة.

تنظر السيميائيّات إلى موضوعها على أنّه((موضوع ظاهراتي وواقعي بشكل مفارق

في الوقت ذاته. فمن جهة نظر البؤرة البدئيّة فإن الوجود السيميائيّ للأشكال هو نظام "المتجلّي"، فالمتجلي (manifesté) هو الكينونة المشكوك فيها وغير القابلة للضبط؛ أما من جهة البؤرة النهائية؛ فإن الأشكال السيميائيّة تكون محايثة، وقابلة للتجلي في ثنايا التدلال حينها سيكون الخطاب السيميائيّ وصفا للبنيات المحايثة وبناء التصورات [الأشباه] التي تعمل على الكشف عن الشروط والشروط المسبقة لتجلي المعنى، وعن" الكينونة" بطريقة ما))[18]. وهذا يضع العالم الطبيعيّ أمام اختبار الدلالات المفتوحة وتجلياتها في أثناء التواصل بالكلام والإيماءات والحركات داخل فضاء معطى لا يمكن تصوره خارج المواضعات الاجتماعيّة والثقافيّة. فالطبيعة كما يتصوّرها معجم السيميائيّات هي العالة التي يوجد فيها الإنسان نفسه منذ ولادته[19]. وهكذا نبّه غريماس وفونتاني على ((وجود السيميائيّات الكبرى للعالم الطبيعيّ التي تنتظر بمعنى ما ذات الإدراك الحسيّ لكي تصبح دالة))[20]. وهذه السيميائيّات التي تصف البنى الشكليّة للعالم الطبيعيّ ليست وقفًا على العالمَيْن الفيزيائيّ والبيولوجيّ؛ وإنما تمتد إلى عوالم الثقافة والاجتماع والاقتصاد؛ ولكن السياج الإبستمولوجيّ للسيميائيّات المحايثة منعها من فتح مسالك جديدة، وإنْ فتحتها لا تجد نفسها تخطو فيها خطوات متقدمة.

يمكن للسانيّات أن تساعدنا على فهم طبيعة لغة التواصل الإيمائيّة من حيث تقطيع هذه الإيماءات إلى وحدات سلوكيّة صغرى (behaviorèmes)؛ ولكننا بحاجة إلى آليات أخرى لكي نفهم كيف تتواصل الأجسام، وتتفاعل، فيؤثر بعضها في بعض عبر برمجيّات منتظمة. وهذا ما يدعو إليه باولو فابري؛ إذ على ((سيميائيّات التواصل ألّا تنظر إلى السلوك الدال في فعله؛ والعمل المقصود بالتواصل؛ وإنّما تنظر إليه داخل كينونة الإنسان، وتواصله، وممارسته أيضًا لمعرفةٍ تتوافر على تقطيع صارم أكثر من كونها غير متجليّة))[21]. ومن هنا ندرك ضرورة أن تخطو السيميائيّات خطوات جديدة للتعامل مع موضوعات التواصل ذات طبيعة مختلفة عن علامات اللسان؛ ومنها الإيماءات والحركات والجواريّة التي تقتضي بناء أنحاء جديدة على غرار السيميائيّات الحيوانيّة التي دشّنها توماس سيبوك.

ثمة بون شاسع بين العادات التي يمارسها الإنسان ومقاصده التواصليّة التي يعبر عنها جسمه، مثلما هو حال لغة الصم البكم التي وقف عليها بيار أوليرون[22] (PierreOléron).

وهذا يدفعنا إلى محاورة سيميائيّات غريماس وكورتاس في النظر إلى العالم الطبيعيّ بوصفه ملفوظا وخطابا بموجب سيميائيّات مستوحاة من روح نحويّة عميقة. ينبغي إذًا أخذ تلفظ هذا العالم بالحسبان، ومن دون ريب سيكون من طبيعة معرفيّة وتداوليّة مختلفة؛ ولكنه مرتبط على وجه الخصوص بالجسم الخالص وبالاشتهاء بوصفه بناء للواقع المدهش؛ وعليه فإنّ مسألة العالم الطبيعيّ تندرج إذًا داخل سيميائيّات الإحساس[23].

يثير هذا العالم ضروبًا من المشكلات نجملها في الأسئلة الآتية التي تضاف إلى أسئلة الإشكال السابقة:

- ما العلاقة القصديّة بين الذات/الموضوع؟
- ما العلاقة التي يمكن أن نتصورها بين العالمَيْن الفيزيائيّ والتذاوتيّ[24]؟
- فما الصيغة التي يصطنعها تقطيع العالم الطبيعيّ إذا نظرنا إليه على أنه ملفوظ؟
- وبالتلازم مع سؤال الملفوظ ماذا بوسعنا أن نقول عن تلفظه؟

ترتكز الأسئلة السابقة على حالة متميزة من العلاقة بين القوانين الكونيّة والقوانين الخاصة. وفي هذا السياق يعتقد غريماس ((أن التضايف الحاصل بين العالم الحسيّ واللغة الطبيعيّة لا ينبغي طلبها من وجهة الكلمات والأشياء؛ وإنما يبحث عنها من وجهة الوحدات الأوليّة لتقطيعها، وأن العالم الحسيّ حاضر حضورا مباشرا في الشكل اللسانيّ (la formelinguistique)، ويسهم في بنائه: ما يمنحه البعد الدلاليّ الذي نسميه بالسيميولوجي))[25]. وهكذا يقع العالم الحسيّ في صلب موضوع سيميائيّات العالم الطبيعيّ. وهذا ما راهن عليه كارناب في النظر إلى اللغة على أنها معطى حسيّ، وأنّ القضايا التي لا تنتظم في هذا المعطى تكون خالية من المعنى. ولكن هذه السيميائيّات وإن انطلقت من تجربة الإحساس (esthesis) فإنّها ليست مقيّدة بالتأمّل المنطقيّ الذي نقف عليه لدى المناطقة مثل لا ينتز وفريجه وروسل وفيتجنشتاين ووايتهد وكارناب مع جماعة فيينا.

تستكشف تلك الأسئلة الصعوبات الإبستمولوجيّة التي تعترض سبيل الدرس السيميائيّ، وهو يتحرى العلاقات القائمة بين الإيماءات الطبيعيّة والثقافيّة. وهذا ما يختزل وجود الإنسان بوصفه جسمًا في مجرة، بل مجرات من الأجسام، كونه جسمًا ناميًّا، حساسًا، متحركًا بالإرادة كما يقول صاحب التعريفات؛ وإن كان المكان بأبعاده الثلاثيّة وبمحوريْه الأفقيّ

والعموديّ يعد القاسم المشترك الذي يستمدان منه مبدأ الهويّة. فكيف يمكن للإنسان أن يخلق، ويحدد المسافة بينه وبين هذه الأجسام ليدركها، ويتأملها، ويتمثلها في لغته الطبيعيّة، بله يستعملها في تعبيره الفنيّ؟

تتنزل الممارسات الإيمائيّة في عالم السيميائيّات الطبيعيّة؛ ولكن قد يحدّ هذا الإنزال – في نظر غريماس- من استقصائها وتحقيقاتها، كما قد يوسعها في الآن نفسه. وترجع عمليّة الحدّ إلى أن عالم الإنسان منفصل عن مجمل العالم الطبيعيّ وكليته من حيث إنه معطى خصوصيّ موقوف على كل جماعة ثقافيّة،وسنعول في طلب المعنى على التضافر الإبستمولوجيّ بين الفينومينولوجيّا والسيميائيّات التي تشكل المرجعيّة النظريّة للمقاربة السيميائيّة للعالم الطبيعيّ؛ لأنه مستوحى من هذه القصديّة في الحدود التي يبدو فيها قطب "الموضوع" الذي يتجه إليه كل فعل واع ومفكر فيه noétique. متسائلين إذًا للوهلة الأولى ماذا يعني الموضوع داخل السياق القصديّ؟

وانطلاقا من هذا الإشكال سنقترب من المناحي النظريّة لموضوع الدراسة. علمًا بأنّنا نرجح مع الراغب الإصفهانيّ شمولية الفعل الإنسانيّ على عمله؛ ولهذا عندما اصطفينا مفهوم الفعل فإنّنا نريد له أنْ يتضمن بداهة مفهوم العمل. فهو يقسّم الفعل إلى ((ثلاثة أضرب: نفساني فقط، وهو الأفكار والعلوم وما ينسب إلى أفعال القلوب، وبدنيّ وهو الحركات التي يفعلها الإنسان في بدنه كالمشي والقيام والقعود، وصناعيّ وهو ما يفعله الإنسان بمشاركة البدن والنّفس كالحرف والصّناعات))[26]. وهذا قد يساعدنا على ضبط بعض المفاهيم التي تبدو متداخلة في دراستنا لسيميائيّات العالم الطبيعيّ التي قد لا تُعنى ها هنا بأفعال القلوب؛ وإنّما أكثر ما تنصرف دراستنا إلى أفعال الأبدان[27] والأجسام، وما يصدر عنها من إيماءات وحركات وإشارات؛ وإن كانت سيميائيّات الأهواء فكّت عقدة التعامل مع حالات النفس من ميول ومشاعر وأهواء؛ لأنّها تعدّ–في نظرها- من صميم الكينونة الإنسانيّة، فسعت إلى الوقوف على قياس حجومها من حيث الكثافة والامتداد، وما تحدثه من توترات وفيوضات انفعاليّة يمكن أن يرصدها ملاحظون يتوافرون على كفايات ثقافيّة كما تشير إلى ذلك السيميائيّات التوتريّة[28].

السيميائيّات الصُوَّريّة:

تستلهم هذه الدراسة ما هو حاصل في حقل البحوث السيميائيّة المعاصرة الخاصة، والمهتمّة بمسألة إدراك الأحاسيس وتجاربها (esthésie)، والحسيّة (sensorialité)، والحسيّة المتعددة (plurisensorialité)، والإدراك المتزامن synesthésie؛ ولعل الغرض المقصود هو الوقوف على الجهات السيميائيّة للحسيّ (النكهة، الشم..إلخ.) في علاقتها بصُوَرِيّة الخطاب (figurativité du discours) التي استعيرت من الجماليات بمحمولاتها المفهوميّة مثل: المشابهة والمحاكاة والتمثيل أو حتى تقليد صور العالم.

تمثل الصوّرية في السيميائيّات السرديّة وحدات ((المحتوىالمعطى ضمن لغة طبيعيّة، وله علاقة بمستوى التعبير في السميائيات الطبيعيّة أو العالم الطبيعيّ))[29]. وتظهر قيمتها في إسناد خصائص للأدوار العامليّة؛ إذ تنتظم هذه الصور في مسارات صُوَريّة لتنتج تشكيلات خطابيّة متضمنة المكونيْن الموضوعاتيّ والصُوَريّ.

ولصوَّريّة الخطاب صلة بمحتوى نسق التمثيل سواء أكان بصريًّا أم لفظيًّا؛ ويتجلى المسار الصُوَّريّ على مستوى العالم الطبيعيّ (الإدراك)، وبخاصة في الخطابيْن الأدبيّ والتاريخيّ؛ إذ تتشاكل الصور، ويرتبط بعضها ببعض مع الموضوعات (الثيمات) التي تصوغها ثقافة من الثقافات[30]. وفحوى موضوع السيميائيّات الصُوّريّة عبارة عن أشكال الملاءمة (adéquation) المصوغة من الاستعمال الحاصل بين سيميائيّات العالم الطبيعيّ والتجليات الخِطابيّة.

يعدّ محمولا الوجود والتجربة قوام النسق الأنطولوجيّ. بيد أن سيميائيّات العالم الطبيعيّ لا تتعامل مع الوجود في ذاته، وإنّما تنظر إليه كما تصوّره أصحاب بشر بن المعتمر المعتزليّ الذين قالوا بالتوليد: ((الأعراض والطعوم والروائح وغيرها تقع متولدة في الجسم من فعل الغير، كما إذا كان، أسبابها من فعله))[31]. ولعل هذه تمثّل ما يعبّر عنه في المصطلحيّة السيميائيّة التي تتصدى للعالم الطبيعيّ بالدلالات المفتوحة (semiosis) والقيم والإستيزيا (esthésie). وبها نفهم جدوى بناء أشباه الصور (simulacres) التي تتخذ شكل الأشباح والظلال في إنتاج الخطاب واستكشاف الشروط التي يتجلى بها المعنى والكينونة.

تهتم هذه السيميائيّات بالتمثيل وبالعلاقات بين الصوَّريّة والتجريد، وتدرس الروابط

بين النشاط الحسيّ للإدراك والأشكال التي يخترحها الخطاب. غير أن مفهوم الصوَّريّة في الأدبيات السيميائيّة امتدّ ليشمل الأنساق اللفظيّة وغير اللفظيّة مثل الرسم الذي يتأسس على الأيقونات التي تحيل على العالم كما يتجلى في التجربة الفنيّة التي بدورها تنتج قيمًا بوساطة العلاقة مع العالم؛ لأن لها بعض الطموح في استرداد الدلالات المتناظرة مع محمول التجربة الإنسانيّة وإدراكها للوجود. إن الهدف الأسمى للصوَّريّة أن ((ترصد في الخطاب أثر المعنى الخاص الذي يروم جعل الواقع الحسيّ مدركًا))[32]؛ ولهذا يعيدنا موضوع العالم الطبيعيّ إلى مفهوم المحاكاة وإن كان على نحو نظريّ مختلف كما أشرنا إلى ذلك؛ لأنه سيتربع على عرش المعنى الذي يعدّ موضوع السيميائيّات.

من الواضح أن مفهوم الصوَّريّة يجعلنا في صميم البحث عن العالم الطبيعيّ كما أشرنا إلى ذلك، ويظهر لنا جمتيْ الوجود والقدرة، كما أنه يبرز لنا أن لا سبيل للوقوف على محمول الوجود دون محمول الدلالة، إن ثمة برزخًا بين الصُوّريّ والمجرد، وبين العقل (raison) والهوى (passion). بيد أن العالم الطبيعيّ ما ينبغي اختزاله فقط في إنتاج أشباه الصور(simulacres)؛ ولكن ((يجب مواجهة البعد الأنطولوجي للدلالات التي يحملها دون نظرة قبليّة))[33]. وهذا ينفي من وجوه أن تصبح سيميائيّات العالم الطبيعيّ مجرد سيميائيّات كينونة. فالكينونة مفهوم ميتافيزيقيّ؛ لكنه يضحى قابلًا للتحيين في العالم الطبيعيّ[34].

ولا غرابة أن نرى بعض الاستكشافات الفيزيائية تؤكد ما يعتمل في عوالم اللغة والشعر. فالأنويّة الدلاليّة تؤشر على وجود تعدد العوالم الممكنة تعددا مفتوحًا على كل الاحتمالات بما فيها الطبيعيّ والثقافيّ، والواقعيّ والافتراضيّ. ومن هذا التشابك والتباري تتناسل الدلالات بعضها من بعض، وبعضها الآخر يصيبه الفناء. وتحت بهاء النسق تتهاوى بعض الأكوان الدلاليّة، ويحيا بعضها الآخر، وتنطفئ أنوار، ويشع بعضها من الجيوب التي تُمثِّل "الفراغ الباني".

كان لايبنتز يعتقد أن عالمنا الفعليّ في الأصل واحد من جملة ما لا نهاية من العوالم الممكنة. إنّه كون شعريّ يسكنه انفجار دلاليّ مفتوح؛ويحدونا السّعي إلى استكشاف لغة الماهيات التي لا تؤمن بها "السيميائيّات المحايثة"، وإن كانت الماهيات في فقه الفينومينولوجيّا ليست سوى حقائق موضوعيّة للأشياء ما دامت تنماز عن طابعها الحسيّ، وهذا لا يحدث

إلّا إذا قمنا بعزل مجال الوقائع الماديّة كما تتبدى في عالم الأعيان لكي نفهم أنّ ثمّة عالمًا طبيعيًّا جديدًا تمخض من تجربة إنسانيّة لا تصطنع "الانعكاس" سبيلا لتمثيل هذا العالم الطبيعيّ.

إذا سلمنا جدلا بهذه الخطوة يكون لزاما علينا أن نواصل الإجراء الفينومينولوجيّ، وننتقل من طور العزل إلى طور البناء أَمَلًا في استخلاص السبل التي يبنى بها الوعي للماهيات. والغاية من هذا الإجراء تشييد بعض المقولات السيميائيّة التي تعد من وجوه بناء للوعي بماهيات العالم الطبيعيّ وموادّه. قد يبدو أننا لم نخرج من ملكوت الميتافيزيقا لهذا العالم الذي يراد له أن يكون طبيعيّا. والحال أن الإجراء الفينومينولوجيّ الثالث سينتقل من "تعمية التجريد" إلى "فضيلة الإيضاح". وهي مما لا ريب فيه تجربة تكتسي طابعًا موضوعيّا بالأشياء التي يتألف منها العالم الطبيعيّ، الذي سيصبح –أيضا- موضوعا للعلوم المختلفة. وفي هذه الحالة سننتقل من عالم الأشياء إلى عالم الوقائع وعالم الدلالات.

الفراسة والفيزيونوميا:

قديمًا كان تفسير الطبيعة ينهض على علم الفراسة التي كان للعرب إسهام وافر في هذا المجال، وتحدث في الموضوع الرازيّان (أبو بكر وفخر الدين). فالفراسة تتقصّد معرفة أحوال الباطن عبر علامات الظاهر، ويحصل ذلك وفق آليات الاستدلال لتصبح ضربًا من القيافة، وقد تمتد إلى الآثار من حيث إنّها مؤشرات –حسب مصطلحيّة بورس- لتكون عيافة. وهناك أصناف أخرى استعملها الإنسان في معرفة المياه الباطنيّة وأحوال المناخ، ولعلها ما زالت تستعمل إلى يومنا هذا على الرغم من التطور التكنولوجيّ في هذا المضمار.

تتعرف إلى طبيعة الأشخاص انطلاقًا من ملامح وجوههم،فنهتدي إلى أمزجتهم وطبائعهم وأصواتهم وأذواقهم. وهذا ما يختص به العلم الذي يعرف بالفيزيونوميّ (Physiognomy) الذي أسسه جون كاسبر لافتر، وهو يفحص هذه الأحوال، ويسعى إلى قياس تعبير ملامح الوجه وسيمياء العيون ودلالة البشرة. وهو بذلك يتجاوز حدود الميتافيزيقا والغيبيّات ومعرفة الطالع التي كان يمارسها المشعوذون والمنجمون والسحرة وأهل الدجل، ليقف على الفيزيقا بناء على تطوير مهارات الإدراك لمعرفة عوالم الباطن.

الإيماءات والتحليل الحركيّ (kinésique):

أُنجِزَت بحوث في موضوع دراسة إيماءات الجسم وحركاته؛ للوقوف على الإحساس

ونبرات الصوت وتعبيرات الوجه ومظهر الجسم وحركاته وأوضاعه؛ ليعبر عنه بلغة الجسم (bodylanguage). ولعل فنون التمثيل والرقص والألعاب البهلوانيّة والرياضات الاستعراضيّة شكل من أشكال هذه اللغة. بيد أن هذا النمط من اللغة تتداخل فيه قنوات التواصل على قاعدة ((الملاحظة الخطيّة لقناة وحيدة))35. وإذا قورنت السلسلة الحركيّة وواحداتها بالتواصل اللفظيّ؛ فإنّ الفارق يكمن في الخطيّة المتعددة التي لا نظفر بها في إيماءات الجسم وحركاته التي تقوم بدورها على أساس المواضعات الاجتماعيّة والثقافيّة التي تتحكم في طبيعة مشاهد التفاعل بين الأجسام وفيض الحركات وتدفقها في أثناء التواصل بحركات الرؤوس والعيون والحواجب والشفاه والأيادي والذراع والأصابع والأرجل وتسريحات الشعر والوشم القديم والحديث في ثقافات عديدة.

إن هذه الحركات التي تؤلف قوام لغة الجسم، تخضع في التحليل الحركيّ إلى التقطيع على منوال اللغة الطبيعيّة بمركباتها ومعجمها وجملها على الرغم من التحديات المنهجيّة الصعبة التي تواجه مثل هذا الإجراء الذي يروم تقطيع الإيماءات والوقوف على أبنيّته الحركيّة.ومهما يكن فإن الرهان قائم على ابتداع لغة واصفة للحديث عن العالم الطبيعيّ القائم على الحسّ، وأشكال التخاطب بين الأجسام دون أن تحذو حذو النعل على طريق العلامات اللسانيّة. وبإمكان هذه اللغة الواصفة أن تساعدنا على فهم أفضل للغة الأجسام سواء أكانت إراديّة أم لا إراديّة، فطريّة أم مكتسبة. ولهذا اهتم المتخصصون في هذا المجال بالواسمات (marqueurs) الحركيّة[36] لتكون مستقلة عن العلامات اللفظيّة.

إنّ الرغبة في تأسيس منهجيّة مستقلة عن اللغة الطبيعيّة لا يمكنها أن تحقق نتائج محمودة في تحرّيها للحركات إلّا إذا تعامل مع الإيماءات على أنها وحدات صرفيّة مترابطة، ما ينبغي فصلها عن الوحدات الأخرى؛ لأنّ هذه الوحدات يمكن أن ترتبط بوحدات حركيّة أخرى، فتنتج دلالات جديدة يحددها بطبيعة الحال المعطى الثقافيّ. ونعتقد أن الإيماءات لكي تنتج الدلالات يجب أن تنتظم في نسق الخطاب الذي تعبر عنه هذه اللغة في أثناء تخاطب الأجسام وتفاعلها حسب المسافة القائمة بينها شدة وتوترًا وكثافة وامتدادًا. وبذلك يمكن أن يقربنا من قياس الإحساس؛ ولا سيما عندما لا تؤدي اللغة الطبيعيّة وظيفتها المنوطة بها. وقد تشجع الباحثين بالاهتمام بالتحليل الحركيّ للإيماءات أن تواصل البشر بلغة أجسامهم أكبر

بكثير من تواصلهم بالعلامات اللفظيّة وحتى بنبرات الأصوات.

قطع التحليل الحركيّ في الولايات المتحدة الأمريكيّة أشواطًا متقدمة في دراسة حركات الجسم دراسة نسقيّة، ووقفت على الثوابت في هذه اللغة، وعزلت ما هو عرضيّ التي قد تشوش على ثبات البنيات الحركيّة للغة الجسم مما قادها إلى بلورة تصوّر تحليليّ يمتاز بالاستقلال عن اللغة الطبيعيّة؛ غير أنّ كرستيفا تنتقد مسعى التيار الأمريكيّ في التحرر من اللسانيّات في بناء قواعد للتحليل الحركيّ[37]. ومن الأمثلة على ذلك وضع رموز لدلالة حركة الرأس ووصفها بالحركة المجرّدة (kine) وهي على النحو الآتيّ: //Hn//، وتعني في اللغة الإنكليزيّة (head-nod). ثم قاسوا درجة زاوية حركة الرأس عموديًّا صعودًا ونزولًا بالتصوير للوقوف على المتغيرات الحركيّة ضمن وتر الدائرة التقريبيّ ما بين 5 ° و 15°. وهذا يؤدي ضبط أوصاف الحركة.

انتهى التحليل الحركيّ إلى استنباط ثلاثة مقاييس لضبط أوصاف الحركة[38]:

الكثافة[39]:

يصف هذا المقياس درجة التوتر العضليّ في أثناء إنتاج حركة الرأس عبر نشاط عضلات العنق (متمددة جدًا، متمددة، عاديّة، متراخيّة جدًا، متراخيّة). ولكن يمكن أن قياس درجات التوتر دون الرجوع إلى حركة العنق. بيد أن دلالة حركة الرأس لا يمكن عزلها عن بقية الجوارح الأخرى التي منها تتشكّل القيمة بالمفهوم الذي قدمته محاضرات دو سوسير.

المدى[40] (Amplitude):

يمثّل هذا المقياس الامتداد الذي تستوي به الحركة على سوقها. كما أن من خصائص المدى أنّه قابل للقسمة. فالوحدات الحركيّة يمكن وصفها أنّها ضيقة أو محدودة أو عادية أو ممتدة أو فسيحة. عندما يريد أن يعبر الشخص عن سلامه وتحيّته، يستعمل يده للمصافحة، فهناك ثقافة تسمح بامتداد اليد إلى اليد الأخرى بموجب الثقافة، بخلاف ثقافات أخرى فإن اليد قد لا تمتد إلى الأخرى قبل أن يكون هناك تعارف. وهذه الحركة قد تكون له دلالات أخرى مثل: الاتفاق والسلام والرغبة. وهذا بخلاف الحركة الطبيعيّة التي يقول عنها صاحب التعريفات كل ((ما لا يحصل بسبب أمر خارج، ولا يكون مع شعور وإرادة، كحركة الحجر إلى أسفل))[41]. والمقصود بالعالم الطبيعيّ من هذا المنظور ما صدر عن

شعور وإرادة.

السرعة[42]:

وبها نقيس الطول الزمنيّ النسبيّ لورود الحركة. ويمكن أن نقف على ذلك في حالات الانفعال؛ إذ تتصاعد سرعة الصوت عند الإثارة سواء أكان ذلك في حالة الغضب أم الغضب. فبطء الكلام أو سرعته، شدته أو انخفاضه، جهره أو همسه يعبر عن هذه الخصيصة أو يمكن أن يتحول الصوت إلى درجة الصفر، فيصبح صمتًا، وقد يتحوّل إلى شكل من أشكال الصوم عن الكلام.

يقدم لنا ر. ل. بيرڈْويستال هذا الأنموذج للتحليل الحركيّ في نهاية السبعينيات من القرن العشرين دراسة بشيء من العمق في دراسة لغة الجسم التي يمكن أن تساعد على فهم أعمق لسيميائيّات العالم الطبيعيّ. وإنْ كان هذا التحليل الحركيّ لم يلق قبولًا حسنًا لدى مدرسة باريس. كما أن التحليل الفينومينولوجيّ يقتضي تفكيرًا أنطولوجيًّا في بنية القبليّ (a priori) داخل حقل الإدراك الحسيّ من تحليل العالم الطبيعيّ[43]. وقبل أن نبرح الحديث عن التحليل الحركيّ نتوقف عند مسألة الحركات المصاحبة اللغة، وهي ظاهرة إنسانيّة نلفيها حاضرة في عمليّة التواصل والتخاطب والمحادثة، وحتى أثناء المكالمات الهاتفيّة والحوارات الداخليّة التي كانت تعد قديمًا من سيمياء الخبل والجنون، كأن يتحدث الإنسان مع نفسه، ويرافق هذه الحديث إيماءات (إشارات وحركات).

نبّهت الدراسات الإثنولوجيّة على اللغة الإيمائيّة التي تنتجها الأجسام في عملية التواصل؛ لأنّها تستكشف جوانب خفيّة من الطبيعة الاجتماعيّة والثقافيّة، وليس لها بالضرورة صلة بالنظرة العرقيّة، ولا علاقة لها بالتحليل الفيزيولوجيّ الذي يفسر حركات اليد أو العين أو الحاجب أو الرأس على أنها مجرد مظهر فيزيائيّ ناتج عن توترات عضليّة يتحكم فيها الجهاز العصبيّ. لفتت الأنثروبولوجيّا الثقافيّة والأنثروبولوجيّا اللسانيّة (إدوار سابير) أنظار علماء الدلالة والسيميائيّين إلى أنّ هذه اللغة الإيمائيّة تنهض على أساس المواضعات الاجتماعيّة والثقافيّة.الملاحظ أن سلطة الأذن حجبت ردحًا من الزمن الاهتمام برصد الإيماءات من قبل قناة العين، فتعرضت هذه الأنساق السيميائيّة إلى الإهمال بحكم أن اللسانيّات ركّزت على اللغة المنطوقة، ولم تول اهتمامها إلى اللغة المكتوبة إلّا قليلًا.

تعدّ دراسة الإيماءات –في نظر روبير كرسوال[44] ملتقى علوم تقليديّة مثل اللسانيّات والبيولوجيا والأنثروبولوجيّا الثقافيّة. وقد سبق أن بيّنا المظهر الفيزيائيّ لحركة جوارح الجسم، وهذا المظهر ليس بوقف على الإنسان فقط؛ وإنّما يوجد لدى الكائنات الحيّة كافة. وما يهمّ اللسانيّات والسيميائيّات البعديْن التواصليّ والدلاليّ لهذه الأنساق من الإيماءات ومصادرها المختلفة النفسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة. ومن الصعب الوقوف على دلالات لغة الإيماءات وإيقاعاتها خارج الإطار السوسيوثقافيّ شأن ذلك شأن اللغات الطبيعيّة.

إن لغة الإيماءات نتاج تاريخيّ تُستعمل استعمالًا متباينًا داخل كل ثقافة. فالإيماءات مثل الكلمات ليست عناصر قاعديّة، وإنما حقائق مبنيّة من قبل وحدات الأداء الحركيّ الصغرى (kinèmes) في الوقت نفسه هي عبارة عن توليفات من سمات دنيا تسمى" وحدة حركيّة" (kinés). وهكذا صار التحليل الحركيّ منهجيّة تدرس مظاهر التواصل عبر حركة الأجسام، ويعود الاهتمام بهذه اللغة إلى أطروحة داروين حول تعبير العواطف بين الإنسان والحيوان في سنة 1873، والدراسات الأنتولوجيّة[45]، وعلم النفس وكذا التحليل النفسيّ؛ لكن يعدّ عمل راي بيردويستيل (Ray Birdwhistell) الانطلاقة الفعليّة لدراسة السلوك الجسميّ دراسة بُنويّة[46].

تحفظ غريماس وبعض أشياعه من مدرسة باريس على علم الإيماءات والحركات (kinesics) من وجهة إبستيمولوجيّة ضمنية؛ لأن هذا العلم ينتمي إلى النزعة السلوكية والتواصليّة وطالما كان هؤلاء شديدي الحذر من انزلاق خطاب السيميائيّات إلى الفلسفة وعلم النفس. ومن أجل هذه الأرضية من البحث في الواقع، فإن السنن الإيمائيّ (code gestuel) يختزل في الأوجه التواصليّة للسلوك المكتسب والمنظم للجسم في أثناء أدائه الحركيّ))[47]. فهي تدرس فقط الإيماءات ذات الإرسال القصديّ من قبل الذوات الإنسانيّة المختلفة في مقامات تواصليّة واقعيّة مقتفيّة أثر الأنموذج الماثل للغة اللفظيّة ومنهجية التحليل في اللسانيّات البنويّة (ولكنها تتبع مؤلفين مختلفي المشرب مثل داروين Darwin وبواس Boasوسابير Sapir وميد Mead وورف Worf وهاريس Harris، إلخ...). كل ما يخص الممارسات الإنسانيّة وأشكال العادات المختلفة، ولكن أيضا "فنيّات الجسم" [موس Mauss]، فهو ليس موضوعًا لهذا التخصص (وهذا ما استخلصته جوليا كرستيفا فهو

مرتبط بالأحكام المسبقة للنزعة الاجتماعيّة الوضعية). إنها مسائل ضد السيميائيّات البنويّة للدلالة، وليس مجرد تواصل؛ إذ لا يمكن أن يؤخذ ذلك في الحسبان.

القيم والوظائف السيميائيّة والإستيتزيّا (ESTHÉSIE)

مهما كانت الفرضيات والنماذج النظريّة المتبعة في تفسير الظواهر وتحليلها. فكلها تتضافر من أجل التقيّد بالضوابط الإبستيمولوجيّة؛ إذ لا توجد من الناحية السيميائيّة معرفة خالصة، وليس في الإمكان تطوير سيميائيّات منسجمة دون الأخذ في الحسبان الإدراك والتجربة الحسيّة؛ ولكن الدلالة لا تكمن في التجربة وحدها: إنها تنبثق من الانصهار بين محمولي الوجود والتجربة والعمليّات التي تربطها أو تفصلها وتميزها أو تخلطها. إن الأمر يتعلق بالطبيعة أو بالمشهد.

إذا كانت الوحدة الإستيتزيّةتدلّ في علم النفس على الطور الأول الذي يسمح بوصف القدرة على إدراك المعلومات الحسيّة التي ينقلها الدماغ لتحليلها وإثارة رد فعل كيماويّ وعاطفيّ، فإنّها تعني لدى راستي ((رؤية للعالم مستمدة ومقيّدة بنوع من المورفولوجيّة الدلاليّة. تقحم الوحدات الاستتيقيّة مختلف المجالات لوصف (تخصيص) المدى المتصاعد. وحدات الأشكال الدلاليّة مثل المجاورات؛ أصناف الانطباع المرجعيّ؛ الأنغام والتشاكلات التقييميّة))[48]. فالدلالة رهن التجربة التي تتمخض عن الإحساس أكثر من كونها متصوّرًا منطقيًّا.

تمثّل الإستيتزيّا في نظر جاك فونتاني((الحيويّة المحسوسة على المستوى السطحيّ... وهي أحد التنويعات الخاصة بالاستهواء والتوتريّة القابلة للمعاينة المباشرة. إنّها تنويعات سطحيّة تجلّلها كثافة وكمّ تشيران إلى الحركات الهوويّة التي تتحقق في مستوى عميق))[49].لأنّه لا سبيل للوقوف على الأفكار خارج التجارب الحسيّة التي تنصهر فيها المتناقضات، فتنبثق منها المعنى، على نحو ما نلفيه في الاستعارات والأعمال الفنيّة؛ إذ تبدو في هذه الأشكال حالة من التوتر بين محمولي الوجود والتجربة تنبثق منها إحساسات جديدة دالة على "توتريّة استهوائيّة" تتماهى الذات في موضوعها عبر حركة تذاوتيّة حسب التصور الفينومينولوجيّ.

الإستيتزيّا حاصل تقطيع الحواسيّ (sensoriel) والحسّيّ (sens)؛ إذ يترتب على ذلك ربط أنظمة الحواس حينما تتمظهر في الخطابات عن طريق الإحساس والإدراك والدلالة.

وأن شكل الدلالة ليس بقار في تحوّله إلى تجارب فنيّة؛ ولهذا ((ينضاف البعد الأخلاقيّ إلى الإستيتزيّا والجماليات باستدعاء اليوميّ والتجربة وسيرورات الدلالة على مستويات عديدة: بناء الهويّة، وتثمين الصورة، التعلّم، ومسرحة الأدوار في المجتمع، والانتساب إلى القيم، والعلاقات التي تكتسي طابعً طقوسيًّا...))[50]. ويمثل جون جاك بوطو لهذه العلاقة بمخطط ثلاثيّ للتجربة الحسيّة[51]، ويوضح فيه روابط التجربة الحسيّة بمكوناتها الثلاثة (الحس والإحساس والحساسيّة) والمجالات المعرفيّة التي تنتمي إليها العلاقات المتمخضة عن التجربة الحسيّة (الأخلاق والإستيتزيّا والجماليات).

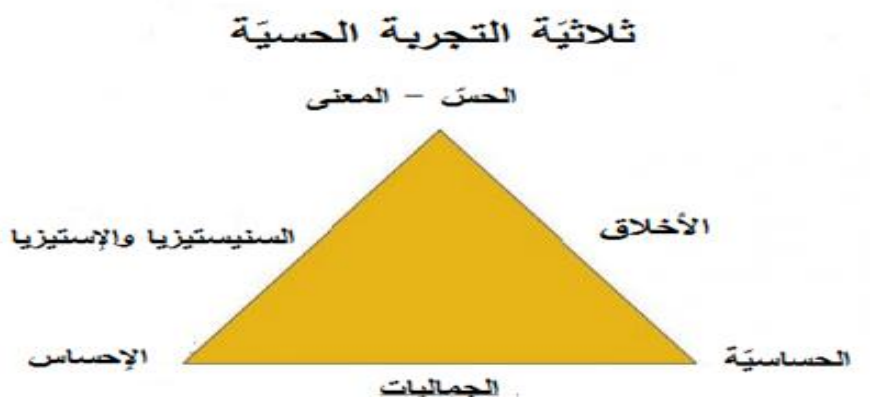

حاز مفهوم الإستيتزيّا في سيميائيّات الأهواء على منزلة جعل منها(("حسًّا جديدًا" بالحالة القصوى وانتظار العودة إلى الانصهار الذي يستند إلى الاستيثاق، يمكّننا من توقّع وجود بعد جماليّ، في المستوى الخطابيّ)). وهذا مدخل إلى الوقوف على الشروط القبليّة للدلالة وعلى ظلال القيمة في التجربة الفنيّة التي تتجلى فيها علاقة الإنسان بالطبيعة عبر محموليْ الوجود والتجربة. ومن هذه العلاقة تتحول علامات الطبيعة إلى رموز ثقافيّة لها أبعاد إيديولوجيّة.

الطبيعة والإنسان:

هناك علاقات متباينة لها أبعاد إيديولوجيّة في مواجهة المشهد عبر التجربة التي تقدمها لنا، وقد سبق لجوليا كرستيفا[52] أن انتقدت موفق الفكر الغربيّ من الإيماءة الذي يصدر عن الإيديولوجيّا الرأسماليّة. فالمشهد الأنثروبولوجيّ للمجتمعات متأصل في موضوع

"الإنسان-الطبيعة" كما يقول منظرو البيئة. وللوقوف على هذا المسألة يمكن استدعاء بعض الأبحاث لفرانسوا أوستي[53] François OST المختص في فلسفة القانون، وصاحب مؤلف الطبيعة خارج القانون؛إذ رسم لنا ثلاث مراحل كبرى لتطور العلاقة بين الإنسان والطبيعة من الوجهة القانونيّة، وميّز بين ثلاثة أنماط[54] من العلاقات الخصوصية التي تبدو فيها الطبيعة متسلسلة.

1) الطبيعة بوصفها موضوعًا (مفارقة للإنسان-الذات)،

2) الطبيعة بوصفها ذاتا؛ إذ يتداخل فيها الإنسان مع الطبيعة؛

3) الطبيعة بوصفها مشروعا؛ وهي تمثّل الاتجاه الأكثر جدة.

يشترك في النمط الثالث مبدآن للتمييز بين الشكليْن الأوليّيْن:

أ) الرابط الذي يضع الفصل الأساس للطبيعة موضع تساؤل بوصفه موضوعا خارجا عن الإنسان (فالقطب المعارض سيكون إذًا ثنائيًّا)؛

ب) الحد الذي يرفض انصهار الإنسان- الطبيعة ويكون حاملًا مثاليًّا للطبيعة- الذات (التي سيكون فيها الموقف إذًا شموليًا).

هناك علاقتان متعارضتان بينهما متناقضات وأضداد: فهناك علاقة تميل إلى الانصهار من وجهة، وعلاقة تنحو نحو الانفصال من وجهة أخرى. فكل واحدة من تيْن العلاقتيْن يمكن أن تتجاهل الأخرى، وتكتسي كل واحدة منهما دلالتها حسب طبيعة اتجاه كل منهما. فإذا انطلقت الحركة من الانصهار بغية إدخال حد بين الإنسان والطبيعة؛ فإنّ هذا الاتجاه يمثل دور مبدأ الحدّ؛ لأنّه يقوم على حالة من التمايز، وأما إذا انطلقت الحركة من الانفصال قصد إنشاء حالة من التضامن بين الإنسان والطبيعة. فإنّ هذا الاتجاه يمثّل علاقة ناتجة عن مبدأ الرابط، وتجسّد بدورها حالة التفاعل.

تسمح المبادئ الإيديولوجيّة وأنماط العلاقة بين الإنسان والطبيعة بوصف قانون الأفضيّة الطبيعيّة، وبحسب الحالة. وفي الواقع فإنّ هذه الأفضيّة تعالج بوصفها طبيعة- عالم (عن طريق الانصهار)، وبوصفها بيئة (عن طريق الانفصال)، أو بوصفها وسطا (عن طريق التمايز والتفاعل). إن أوست اقترح في الحالة الأخيرة مبدأين يسمحان بوصف القانونين المكملين للطبيعة مُدرَكة بوصفها "وسطا" يتمثلان في: مفهوميْ التراث والمسؤوليّة[55].

يضفي نسق القيم على خطاب الطبيعة مسائل لا تخلو من بعض التعقيد. ومن هذه القيم ما هو اقتصاديّ وما هو ثقافيّ وما هو بيئيّ. ويهب هذاا لنسق القيميّ هويّة المجموعات الإنسانيّة. فيحصل بين فضاء الطبيعة وسلوك الإنسان نمط خاص من علاقة التبادل، وتخضع هذه العلاقة بدورها إلى قيود تصبح قوانين إلزاميّة يمتثل إليها أفراد المجموعة البشريّة. وبالتناظر فإن مفهوم المسؤوليّة الذي أثاره أوستصار متداول على نطاق واسع، فيتخذ صورة مبدأ الاحترازprécaution. ويصبح الفضاء الطبيعيّ بالنسبة إلى الساكن فضاء اختبار لمسؤوليته، وبالقياس الدقيق، فالساكن (وليس الطبيعة) يكون مسؤولا على حفظ التمييز بين الفضائيْن الطبيعيّ والثقافيّ. ولمفهوميْ التراث والمسؤوليّة مقتضيات زمنيّة تشتمل على حفظ الماضي من حيث هو تراث، وصون المستقبل من حيث إنّه مسؤوليّة.

كما سبقت الإشارة تبقى العلاقة بين الإنسان والطبيعة قائمة على خصيصة التبادل المعقد،وتتجلى في بنيتها السيميائيّة الأساس. كما أنّها تنتج من تفعيل قانون التبادل بين الإنسان والطبيعة خطابات إيديولوجيّة ومواقف اقتصاديّة وسجالات سياسيّة وحجاج بين المجموعات البشريّة.ودون الخوض في البعد الميتافيزيقيّ الذي يؤطر علاقة الزمن بالإنسان والطبيعة؛ فإن ذلك يمكن رصده في الدلالة التي يكتسيها في مجال الخطاب، ومساره الصُوّريّ.

شروط غريماس وسيميائيّات العالم الطبيعيّ:

يحيلنا جيونفرانكو مارون (Gianfranco Marrone) إلى الطريقة المثلى لكي نفهم "سيميائيّات العالم الطبيعيّ[56]" لدى غريماس، فعلينا العودة إلى دراساته السابقة ومنها: المحكي الأسطوري بورورو أو قصة "صديقان" لموبسان أو مقدمات يالمسليف تأسيًّا بمقولته الشهيرة: فلكي نفسر الدلالة، ونفهم معنى النصوص فهمًا أفضل "علينا قراءتها من نهايتها". لقد نشر غريماس مقال "شروط لسيميائيّات العالم الطبيعيّ" أول مرة في مجلة "لغات"، وضمها إلى كتابه" في المعنى" الذي نشر سنة 1970. وتعد هذه الدراسة من البحوث التي تتسم بالطول النسبيّ في كتابات غريماس، وهي على درجة غير قليلة من الصعوبة والتعقيد.

تتمثل الصعوبات النظريّة التي تواجه هذا الطموح العلميّ في بناء سيميائيّات العالم الطبيعيّ إقامة تدوين رمزيّ للغة الإيمائيّة. إنها مسألة إجرائيّة تبدو ذات طابع تفصيليّ. وإن

هذا الإجراء عمل حاسم بالنسبة إلى غريماس من أجل تأسيس "سيميائيّات عامة" تضطلع بمسألة التدوين الرمزيّ للغة الإيمائيّة ((التي يمكن أن نفكر بها في بناء سيميائيّات العالم الطبيعيّ مشروطة بنجاح المؤسسة السيميائيّة في مجموعها))[57]. وهذا التفكير يقف وراءه طموح يتطلع إلى بناء سيميائيّات عامة على منوال اللسانيّات العامة.

يتساءل مارون لماذا الرهان بهذا الحجم على "سيميائيّات العالم الطبيعيّ"؟ ولماذا البناء الاصطناعيّ للغة رمزيّة واصفة للإيماءات؟ أفمن الممكن التفكير في تأسيس علم مخصوص للدلالة ؟ ما العلاقة الأهم بين دراسة اللغة الإيمائيّة وبناء سيميائيّات عامة؟ كل هذه الأسئلة التي طرحها مارون تجد إجابتها في مستهل دراسة غريماس التي اختار لها استعارة مفهومية نابعة من خطاب تعليميّ،فقارن بين اختراع الكتابة والتأسيس النظريّ للسيميائيّات العامة التي تخفي –مثل كل الاستعارات- سمة الوحدة الدلاليّة بين العناصر المتشابهة.

يصطنع غريماس حجاجا استعاريًّا في القول إنّ اختراع الكتابة -المرتكز على تبديل للسنن المستعمل في المادة الصوتيّة بسنن من طراز بصري- يستلزم السير عكس التيار لبناء ((فونولوجيّا ضمنيّة ضروريّة لأي عمليّة تبديل))، ويستدعي مواكبة التيار لإحداث إبدالات نوعيّة و"كارثيّة" في الفكر الإنسانيّ. وبالطريقة نفسها نلفي هناك جمدًا من أجل تجاوز اللسانيّات (الخاصة باللغات الطبيعيّة) والتوجه نحو بناء سيميائيّات (تستطيع دراسة الأنساق الدلاليّة الإنسانيّة والاجتماعيّة كلها). وإذا حدث ذلك فنحن نتلمس الطريق الصعب إلى إحداث "ثورة" في التفكير البشريّ.وإذا سلمنا بذلك جدلًا. فما الشروط المطلوبة من أجل تجسيد هذا الطموح؟

إن الإجابة متضمنة -أيضًا-في الشرط الذي يقتضي (تأسيس" سيميائيّات عامة"، و"بناء فونولوجيّا ضمنيّة"). بمعنى كل ما يتعلق بالإيمائيّة، وإمكان تبديل تحديدًا سنن مستوحى من الجسم وفضائه بسنن من طراز بصريّ؛ وعليه يتحتّم التفكير في رسم رمزيّ مناسب لدراسة الممارسات واللغات الإيمائيّة. ولنا أن نستحضر في هذا المقام تصور محمد إقبال للجسم؛ إذ إن الجسم ((ليس شيئا قائما في فراغ مطلق، بل هو منظومة من الأحداث والأفعال))[58]. والمطلوب كيف نهتدي إلى" ترييض" هذه الأحداث والأفعال، وإنشاء لغة واصفة لخطابها؟

لقد أخذ هذا السؤال حيزًا كبيرًا من الدراسة، فامتد على طولها: إن بناء رسم رمزيّ يفترض – مثلا- أن نكون قد اخترنا سلفا اختيارًا واضحًا طبيعة الإيماءات (وحدات دنيا أو حقائق مبنيّة) على معايير تقطيع المركب الإيمائيّ (وإذًا تقطيع الجسم إلى أجزاء)، وتبعًا لذلك القيمة الدلاليّة للحركة الإنسانيّة أو التمييز بين المواقف العمليّة للإنسان وقصديّاته التواصليّة عبر الجسم.

يتحول السؤال الوظيفي إلى الإجابة عن سؤال:ما الإيماءة؟ تعرّف المعاجم العربيّة فعل أومأ بأنّه عمليّة الإشارة باليد أو بالعين أو بالحاجب أو بالرأس أو بأي جارحة من جوارح الجسم، مثل الدلالة على القبول بالإيجاب أو المعرفة عمومًا. والخلاصة أن الإيماءة لغة يصطنعها الجسم في عمليّة التواصل[59]، وأورد الزبيدي قول الليث: ((الإيماءُ: أَن تومِئَ برأسِكَ أَو بيدِكَ كما يومِئُ المَريضُ برأسِه للرُّكوعِ والسُّجودِ وقد تقول العرب : أَوْمَأَ برأْسِه أَي قال : لا))[60]. وهذا التعريف شجّعنا على ترجمة (geste)بالإيماءة.

فالوقوف على هذا الحد ضرورة قصوى بالنسبة إلى أي خطاب علميّ. يكتسي هذا السؤال صبغة إشكاليّة نظريّة وإبستمولوجيّة في الوقت نفسه. ويترتب على ما سبق سؤال آخر من قبيل: ما العلاقة بين المعنى المعبّر عنه بوساطة الجسم والناجم عن تقطيع الخصيصة الصوتيّة؟ واعتقد غريماس أن هذه الإشكاليّة تعدّ إرهاصًا لميلاد تخصص، يشبه "السيميائيّات العامة" التي ما زالت موضع رهان.

إن المنطلق الأساس لبحث "شروط لسيميائيّات العالم الطبيعيّ" يتمثل في بناء "سيميائيّات عامة" انطلاقا من مسألة خاصة بدراسة سيميائيّة لسانيّة للغات الموسومة بالإيمائيّة. وهنا لا بد من الوقوف على العدد العاشر الذي خصصته مجلة "لغات Langages " للممارسات واللغات الإيمائيّة في عددها الصادر في جوان 1968، وتضمن البحوث الآتية:

- برنار. كيشلان (B. Koechlin) التقنيات الجسميّة وتدوينها الرمزيّ
- جوليا كرستيفا (J. Kristeva) الإيماءة والممارسة والتواصل:

تستشهد كرستيفا[61] في مستهل بحثها بنص من مسرحية أجامنون (Agamemnon) التي يدعو فيها أخيل (Eschyle) إلى التعبير بالإيماءات بعدل الأصوات، وتستدعي موقف نيتشه (Neitzsche) الذي يعتقد أن الإيماءة تبقي في داخلنا

حدودًا للفضاء وأرتو (Artaud) الذي يرى أن هناك ثقافة بالكلمات وكذلك ثقافة بالإيماءات.

ب. فابري (Paolo Fabbri) اعتبارات خاصة بالجوارية

((كل فعل تسمية لأيّ معرفة جديدة ذو طبيعة سيميائيّة))[62]. فالجواريّة[63] [proxémique] تعدّ فرعًا من السيميائيّات التي تدرس الصوغ البنوي الدال للفضاء الإنسانيّ، والمكان الذي يتحرك فيه. وتساعد السيميائيّات المعممة على فهم الصفات الحساسة ضمن تراتبية اللغة الواصفة القادرة على وصف البنية الدالة. كل فعل جواري فعل سيميائيّ في اتجاه لا ينحو منحى لسانيّا. يحدد باولو فابري دراسة موضوع الجواريّة لأنها جاءت لتشق طريقها داخل الفضاء الذي يكون معرفًا سلفًا ضمن ((سيميائيّات معمّمة، تتقصد فهم المميزات الحسيّة داخل تراتبيّة اللغات الواصفة القادرة على وصف البنية الدالة))[64]. بيد أن هذه البنية الدالة ستطلب خارج اللسانيّات، وهي تتطلب لا محالة وضعًا إبستيمولوجيًّا مغايرًا يمنحها القابليّة لأن تكون ذات برنامج معرفيّ.

يمضي فابري في إبراز معالم الجواريّة من حيث إنها تنهض على أوّلية (axiome) الثقافة تساوي التواصل، ولكن مرجعيتها سلوكيّة كما ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكيّة، ويحيلنا على دراسة تراجير G. L. Trager الموسومة باللغة المصاحبة: الجواريّة الأولى[65]، ويعود تاريخها إلى 1958، ولكن علاقة الثقافة بالطبيعة موضوع أنثروبولوجيّ يروم الانتقال من عالم العلامات إلى عالم الرموز؛ وذلك عندما يضفي الإنسان قصدًا على ما يحيط به في بيئته، وبهذا القصد تُنتَج المعاني. وعود على بدء فإنّ التأمّل في هذه العلاقة يقتضي سَننًا سلوكيًا لكي نفهم هذا القصد، ونحيط بدلالات السلوك الإنسانيّ الذي ينتظم اجتماعيّا في أثناء سيرورة التواصل بين أعضاء الجماعة. ولا حيلة لهذه الجواريّة إلّا أن تكون نسقيّة تختلف مكوناتها باختلاف الثقافات.

- فرانسوا راستي (F. Rastier) السلوك والدلالة

- ف. بروكا- كيوتيا وأ. غيرشيسكو (V. Proca-Ciortea et A. Giurchescu) بعض الأوجه النظريّة لتحليل الرقص الشعبيّ

الملاحظ على لغة الجسم في حركات الرقص الشعبيّ يمكن مقاربتها على أنّها نسق

سيميائيّ دال[66]، وتفسير مجموع علامات حركة الجسم وإيماءاته على النحو الذي تنهض على بنيته الإحيائيّة والآليّة. ولهذه الإيماءات خصيصة بعضها عفويّ وبعضها الآخر واع؛ إذ يمكن للإنسان أن ينفجر في الضحك بمجرد أن تلمس جزءًا حسّاسًا من جسمه، ويمكن أن يضحك لموقف من المواقف المثيرة للضحك. وأكثر ما تهتم الدراسة السيميائيّة بالحركات الواعيّة.

- كلود بريمون (C. Bremond) من أجل إيمائية الرسوم المتحركة
- ر. ل. بيردويستيل (R. L. Birdwhistell) تحليل حركات الجسد
- ك. هيوت (CL. Hutt) قاموس اللغة الإيمائيّة لدى الترابست
- ر. كريسوال (R. Creswell) الإيماءة اليدوية المشتركة مع اللغة
- ب. بويساك (P. Bouissac) أحجام صوتية وأحجام إيمائية في عدد أكروباتي
- ج. كرستيفا وم. لاكوست (J. Kristeva et M. Lacoste) بيبليوغرافيا

لقد أعاد غريماس نشر مقالته" شروط لسيميائيّات العالم الطبيعيّ" بعد سنتين من نشره في مجلة "لغات" المشار إليها سابقا بعد تعديلات بسيطة في كتابه" في المعنى". كما أسهم في الحديث عن الموضوع في مؤلفات مشتركة مثل كتاب "مقدمة في مقالات في السيميائيّات الشعريّة[67]". وكذا مقدمة منشورة في نهاية مجلة "أعمال سيميائيّة" خصصه لـ" السيميائيّات الصوَّريّة والسيميائيّات الفنيّة[68]" سنة 1984. وفي هذه المقدمة إعادة صوغ لبعض الإشكالات المطروحة. وبالفعل فإننا عندما نطلع على بحوث العدد العاشر من مجلة "لغات" يتبيّن لنا مدى الاهتمام بسيميائيّات العالم الطبيعيّ وأنساق الإيماءات.

انطلقت مجموعة البحث في مجلة "لغات" من فكرة تجاوز دراسة الإيماءات من حيث إنها "وحدات طبيعيّة"؛ وعليه فإنها تكتسي منحى "كونيّا". بمعنى أنها تمثل التشكيل التاريخي للثقافات الإنسانيّة المختلفة. تناولت بحوث أمريكيّة "علم الإيماءات والحركات" (kinesics) التي تدرسها في ذاتها أو تلك المصاحبة للكلام. وسبق أن أشارت إليها جوليا كريستيفا، وقد يكون اهتمامها بموضوع الممارسات والإيماءات نابعًا من هذا الاطلاع على ما كان يعتمل آنذاك في الدراسات الأمريكيّة بخصوص لغة الجسم إنْ في اللغات الإيمائيّة، وإنْ في اللغات المنطوقة التي ليست ذات روح طبيعيّة خالصة.

وعلى المنوال نفسه نلفي هناك مجالًا آخر للبحث يتأتى مبدئيًّا من الدراسة السيميائيّة للإيمائيّة، والجواريّة التي تُستكشَف من المشكلات النظريّة والإبستمولوجيّة المتشابهة جدا. وقد أسس هذا الحقل الأنثروبولوجي إدوار ت. هال في سنة 1963 في اهتمامه بموضوع الجوارية. إنّ هذا المصطلح يعني لديه مجموعة الملاحظات والنظريّات التي يصطنعها الإنسان لنفسه عن الفضاء من حيث إنه منتوج ثقافيّ خاص.

يرى إدوارد هال أن الجواريّة تدرس الصوغ البنويّ (البَنْيَنَة) الدال (ة) للفضاء الإنسانيّ محللًا دلالة المسافات المختلفة بين الناس وتوجيهاتها العكسيّة على صعيد الفضاءات الصغرى (التفاعل بين اثنين، أشكال القطاعية، إكراهات التأثيث) والفضاءات الكبرى (الهندسة والعمران والمشاهد، ...إلخ). وكما أشار إلى ذلك باولوفابري في بحثه عن الجواريّة التي تفترض بالفعل إبستمولوجيّا سلوكيّة وسيميولوجيّا الاتصال.

إن البعد الخفي في الواقع الذي هو موضوع التحليل الصريح لهذا التخصص ليس المستوى المحايث للشكل الدال الخاص بالنسق السيميّ للفضائيّة (spatialité)، ولكن على العكس من ذلك؛ فإنّه يمثل مستوى السطح المادي للدلالات المفتوحة (السيموزيس)، ((تجلي هذا الحدث التواصليّ؛ إذ يضبط اتصال الدال بالمدلول)). وقد نقد بيك دعوى إدوارد هال الذي يرى بأنه يتحدث عن البروكستيك لا البركسيميك.

إن اختبار الفرضيات الإبستمولوجيّة (والآثار الإيديولوجيّة) لهذين المجالين من البحث في الأداء الحركيّ والجواري يطرح مشكلة التأسيس النظريّ للدراسة السيميائيّة للإيمائيّة بمعنى آخر يتعلق الأمر بمسألة التعريف نفسه لموضوع خصوصي للتحليل وتحديد حقل الملاحظة وإضفاء الفرديّة على عتبات هذا الحقل، وإعادة بناء علاقات الجوار مع تخصصات أخرى. إذا قارنا مثلا مبحث راستي ببحث كريستيفا؛ فإننا نرى فارقًا كبيرًا بينهما في الرؤية إلى درجة التعارض في التحديد الأوليّ لحركة الجسم الدالة.

يجب التمييز بالنسبة إلى راستي بين السلوك الإنسانيّ الدال والسلوك الإنسانيّ غير الدال طارحا الشروط القبليّة التي بحسبه يمكن أن يكون السلوك حاملا للدلالة. إن السلوك بحسب يالمسليف في نظر راستي يكون دالا إذا أمكن تفسيره مثل مستوى التعبير اللسانيّ (المتمفصل) الذي يطرح علاقة افتراضية عكسية مع مستوى المحتوى (الذي بدوره يكون

متمفصلا). إن دراسة دلالة السلوك الإنسانيّ يعني تحديد وحداته التعبيرية والمضمونية، وكذلك علاقته الضروريّة على وجه التحديد. وكل ما لا يستجيب إلى خصائصه لا يعد دالا، وليس موضوعًا لدراسة سيميائيّات الإيماءات التي تنطلق بحسب هذا التصور من الأنموذج اللسانيّ.

لا يرتكز هذا التحديد على معايير خارج مجال التحليل (التواصل القصديّ في مقابل الحركات اللاإرادية للجسم، الإيماءات في مقابل الممارسات) أو على افتراضات ضمنية خفية في أثناء التحليل نفسه (علامات اصطناعية في مقابل علامات طبيعيّة؛ سلوك أسطوريّ في مقابل ممارسة يوميّة) ولكن وفق شروط علميّة مشتركة تشمل اللغات جميعها. من هنا ينحرف القول بأن السلوك غير دال (يتضمن السلوك العمليّ والسلوك اللاإرادي "comportement réflexe" بعبارة أخرى كل السلوكات غير الرمزيّة)[69]. ومدار أيّ دلالة على نشاط السلوك الإنسانيّ.

خلافا لراستي فإن كرستيفا تميز تمييزا أساسيًّا بين الممارسات من وجهة والتواصل من وجهة أخرى. وهدفها الذي تتوخاه في مقالها يتلخص في أن "الإيمائيّة فكر غير معياريّ" أو هو فكر ضد المعياريّة يجنح إلى الإفلات من شراك العقلانيّة و"التمركز حول الذات[70]". إن التراث الفلسفيّ الغربيّ- حسب كرستيفا- كان دائما يفضل علاقة الصوت/الفكرة، مشيرا مرارا إلى أسبقية اللغة اللفظيّة (المنطوقة) وأوليّتها، وقدم بذلك ((كل إيمائيّة غالب عليها الطابعالآليّ والإطناب بالقياس إلى الصوت))[71]. وفي هذا المقام لا يقدم لنا التاريخ إجابة دقيقة عن السؤال الآتي:أيما كان أسبق في التواصل والتعبير، اللسان أم جوارح الجسم الأخرى؟

ومن مقاصد السيميائيّات العامة أن يُخرج الإيمائيّة من أسر هذا التراث الفلسفيّ، وتثمين دور الإيماءات في الحركة الإنسانيّة وفعلها، وإبراز أهميتها الأساس في الإنتاج والممارسة في إنتاج الثقافات. ووراء هذه الأسئلة الفلسفيّة الأكثر عمومية تحمل هذه المقاربة نتائج نظريّة على درجة غير قليلة من الأهمية. ومنها فكرة ((عدم اختزال الإيماءة في اللغة اللفظيّة)).

وهذا ما يجعلها في تباين مع التراث الذي ينظر إلى الإيماءات على أنها مجرد حامل للفظية "verbalité" وحتى ((أكثر جوهرية لتوسيع "المفهوم نفسه للغة وليس بوصفها

تواصلًا؛ ولكن بوصفها إنتاجًا))[72]. وهي بذلك تعارض الرؤية الوظيفيّة للألسن على أنها مجرد أدوات لنقل المعلومات والأخبار. وبعيدًا عن النظر إلى الإيماءة على أنها مصاحب غير ضروريّ للتواصل اللفظي؛ فإن الإيمائيّة تتقبل الدور الذي يضطلع به النشاط السابق((للمرسلة الممثلة والقابلة للتمثيل)). فهناك عمل يسبق البناء نفسه للعلامة والكلمات، نشاط يؤسس لإمكان التعيين نفسه الذي سيصبح خاصًا بالكلمات. وفي النهاية تنتهي ج. كرستيفا إلى الزعم بأنّ كل إيمائيّة تعدّ ممارسة (pratique). وكل ممارسة لها ظلال إيديولوجيّة.

ولكي نحلّ هذه المشكلات ومشكلات أخرى أكثر خصوصية التي تتلو ذلك؛ فإن غريماس يقدم الشروط النظريّة التي لا تخصّ فقط سيميائيّات الإيماءات؛ وإنما تشمل سيميائيّات العالم الطبيعيّ. كل الإيماءات حسب التراث الفلسفيّ الضارب في القدم (من أرسطو مرورًا بالإيديولوجيّين وصولًا إلى فتجنشتاين) نابع من دلالات مفتوحة (سيميوزيس) لا تكتسي طابعا اعتباطيًّا أو اصطلاحيًّا لسانيّا؛ ولكن شيئًا على أنه "مماثلة" أو "تحفيز"، وإذا هو من قبل "الطبيعة". ولكن ما "العالم الطبيعيّ" بالنسبة إلى غريماس؟ ما القيمة التي يمنحها لهذا المفهوم الأكثر غموضًا، ومعه المفاهيم المجاورة مثل "علامة طبيعيّة" في مقابل "علامة اصطناعية"، و"مرجع" في مقابل "مدلول"، و"أشياء" في مقابل "كلمات"، و"طبيعة" في مقابل "ثقافة"؟

ووفق فهم يامسليف لمتصور اعتباطيّة العلامة التي طرحها دو سوسير؛ فإن غريماس لا يرى الاعتباطيّة في العلاقة بين الدال والمدلول أو بين التعبير والمحتوى؛ ولكن بين المادة والشكل (التعبير والمحتوى). فاللسان ((شكل أو الأفضل تشابك الشكلين- مختلفة عن المادة (الماهية) التي تتجلى في ذلك))[73]. ويترتب على ذلك نتائج نظريّة محددة تحديدا جيّدا وأساسيًّا. إذا كانت المادة متنوعة والشكل ثابتًا، كل المواد (بوصفها مشكلة سيميائيّا) يمكن أن تضطلع بإبراز التعبيرات والمحتويات: ليس فقط المادة الصوتيّة (المتجليّة في الشفويّة)) أو المادة الخطيّة (المتجليّ في الكتابة)، ولكن كل مواد العالم، بمعنى كل الطرائق المحسوسة التي بوساطتها التي يظهر بها العالم لنا عبر أبهتنا الحسيّة (عبر جسدنا): طرائق بصرية، لمسيّة، وصوتيّة، وشميّة، حسيّة (sensorimotrice)، ...إلخ.

لا يمكن أن تتفسح لسانيّات اللغات اللفظيّة إلى مجال سيميائيّات كل الأنساق وعمليّات الدلالة، لتتحول إلى سميائيات العالم الطبيعيّ؛ وعليه فإن "العالم الطبيعيّ يصبح بالنسبة إلى السيميائيّ مجموعة أكثر تنوعًا من التجليات الحسيّة (للمواد) التي تكتسب معنى بالنسبة إلى الإنسان بوساطة طرائق مختلفة لتقطيعها الشكليّ، بعبارة أخرى فالعالم يكون طبيعيّا بالطريقة نفسها التي تكون عليها الألسن المسماة طبيعيّة: بناءات ثقافيّة التي عن طريقها تطرح أشكال التعبير بوصفها قضايا عكسية مع أشكال المحتوى. إن الفرق بين الألسن (الطبيعيّة) والعالم (الطبيعيّ) مسألة مادة،أكثر من كونها مسألة شكل. إنها مسألة مختلفة إذًا عن الإنتاج، ثقافيّا وتاريخيًّا محددة للدلالة الإنسانيّة. فالطبيعيّ يعني إذًا في هذا السياق النظريّ، شيئا مثل "العادي" (habituel) الذي سبق أن اكتسى "معنى عاما"، شيئا يلفيه الفرد في أثناء فهمه الذاتيّ لما يحيط به.

تعد فكرة ما قبل الفهم –في العمق- نقطة وصول الهرمينوطيقا، ونقطة انطلاق السيميائيّات. وبخصوص علم الدلالة فإن الأمر لا يتعلق بإظهار الصعوبات النظريّة (théorétiques) للفكرة المعرفيّة "للتمثيل"؛ ولكن الأمر يتعلق بإعادة وضع الآليات لبنائها الخِطابيّ، شيء مثل "أثر التمثيل" على نحو ما يتحدث عنه بارت في الميثولوجيّات بخصوص "إضفاء الطبيعة" (naturalisation) حديثا أساسيّا.

يشير غريماس وكورتاس في معجم السيميائيّات المعقلن إلى مفهوم "العالم الطبيعيّ" كونه ((المظهر الذي يتبدى فيه الكون للإنسان بوصفه مجموعة من الصفات المحسوسة التي تتوافر على بعض التنظيم الذي يبدو أحيانا كأنه "عالم المعنى العام" أو "عالم الحس المشترك". بالقياس إلى البنية العميقة للكون التي تتوافر على نظام فيزيائيّ وكيميائيّ وبيولوجيّ...إلخ. فالعالم الطبيعيّ يرتبط بالبنية السطحيّة. فهو من وجهة أخرى بنية خطابيّة؛ إذ يمثل في إطار العلاقة بين الذات والموضوع. إنه الملفوظ الذي تنجزه الذات الإنسانيّة، وتفك لغزه))[74]. وعليه فإن العالم الطبيعيّ منظورًا إليه خطابًا يدرس بوصفه نشاطًا تلفظيًّا يمثل تجربة إنسانيّة حسيّة.

وبالاستعانة ببعض الأطاريح الفينومينولوجيّة لميرلوبونتي والأنثروبولوجيّة البنويّة لكلود ليفي ستراوس، وربط ذلك باقتراحات طوبولوجيّا الثقافات التي قطعت شوطا

في السنوات نفسها من قبل يوري لوتمان جعل غريماس يرى في الاختلاف بين الثقافة والطبيعة ينبغي أن يُنظر إليه على أنه بناء إنسانيّ يختلف باختلاف الثقافات، والتحديد الموجه نحو ما هو داخل كل ثقافة وما هو خارجها، يبقى كل ذلك خارجها. وباستعمال المقولات المفسرة للمربع السيميائيّ (التي طرحها غريماس في المعنى) نستطيع القول بأنّه قبل وجود الطبيعة كان ينبغي أن يمر هذا الكيان عبر مرحلة اللاثقافة (التي طرحها يوري لوتمان) (نفي الذي يتبعه دائما الإثبات). فالثقافة والطبيعة ضربان من الكليات الدلاليّة الجماعيّة التي تقيم تقابلًا قاعديًّا داخل كل ثقافة، يتغير بتغير المكان والزمان، وتستطيع بواسطته كل ثقافة أن تخضع علاماتها ولغاتها ومواقفها الدالة وسُننها إلى التقطيع[75].

كل ذلك يتضمن نتائج أخرى ذات أهمية إنْ على الصعيد النظريّ وإنْ على الصعيد المنهجيّ. فللوهلة الأولى يبدو مفهوم يالمسليف للسيميائيّات توسيع ضروريّ للسانيّات البنويّة، وليس مجرد إشارة لفضول فكريّ؛ إذ يتجلى بوصفه تجاوزًا جذريًّا للفرضيات حول "خصوصيّة" اللغات التي طرحتها السيميائيّات الأمريكيّة [موريس] وسيميولوجيّا التواصل الأوروبيّة. وحسب هذه النظريّات فإن الأنساق السيميائيّة تختلف فيما بينها على مستوى قنوات التوصيل، بمعنى المواد التي تستعملها على مستوى التعبير: المادة الصوتيّة بالنسبة إلى الألسن الطبيعيّة والمادة البصريّة بالنسبة إلى الصور، والمادة السمعيّة البصريّة بالنسبة إلى السينما والتلفزيون، والمادة الجسميّة بالنسبة إلى الإيماءات...إلخ.

إذا كانت الدلالة ترتبط بالشكل وهي مختلفة عن المادة؛ فإن التقطيع الشكليّ الداخليّ للغات كفيل بالتمييز بينها، وليس بالمادة التي تظهر لنا. ولا غرو أن يصدع غريماس في هذه الدراسة بأن الاختلافات الرئيسة بين اللغتين اللفظيّة والإيمائيّة ليست لها علاقة بمادتها، ولكن يمكن أن نقف على اختلافها باستعمال التمييز اليالمسليفي بين العلامات والرموز (والتي سيستعمل بعد سنوات من ذلك عبارة شبه الرموز)، أو التي طورها بنفينست بين الملفوظ والتلفظ.

إشكال المرجع:

وعلى المنوال نفسه فإن صوغ الإشكال السيميائيّ الذي اقترحه غريماس يسمح بإعادة تشكيل متصور المرجع (référent) الذي قدمته الوضعيّة المنطقيّة الجديدة، واستعمله ش.

موريس في تعريفه للعلامة؛ ولكن هذا المتصور كانت قد رفضته جملة وتفصيلا اللسانيّات والسيميائيّات البنويّة التي تنحو نحو دو سوسير وبارت بما في ذلك اعتقاد غريماس وكورتاس بعدم وجود نظريّة للمرجع تنقع الغليل[76]. فالمرجع مفهوم سائد يدل على موضوعات" العالم الطبيعيّ" الذي تقدمه لنا اللغات الطبيعيّة؛ ولكنه في الغالب يشمل العناصر الواقعيّة دون الخياليّة؛ وهذا تصوّر أقلّ ما يقال فيه أنّه يتّسم بضيق المجال الذي يمتد إليه هذا المفهوم. وظلّت العلاقة بين العالميْن المرجعيّ واللسانيّ تؤرق بال الفلاسفة والمناطقة. كنا أشرنا فيما سلف من القول أن لسانيّات الخطاب وقفت على المعينات (deixis) الدالة على التعبير التأشيريّ الذي يختص بمسألة التلفظ وإنتاج المعنى، وسبق أنْ أطلق عليها ياسبرسن وياكبسون مصطلح (shifters).

إنّ مشكلة "الشيء" الذي يقع خارج اللغة، وبه يمكن للغة أو ينبغي لها أن تحيل عليه، توجد فقط- حسب غريماس- إذا نظرنا إليها على أنها مناسبة للتحليل اللسانيّ وفقط اللغة اللفظيّة، بعبارة أخرى لها نمط واحد من نسق الدلالة: ألا وهو الألسن الطبيعيّة. ولكن إذا كان العالم الطبيعيّ(الذي فُسِّرَ في الإطار الأكثر تحديدا الذي قمنا بتشييده أعلاه) يصبح أيضا موضوعًا للدراسة السيميائيّة اللسانيّة إذا كان هذا العالم خارج اللسان فينبغي التعامل معه على أنه ((مكان تجلي المحسوس، وقابل لأن يكون تجليّا للمعنى الإنسانيّ))[77]. إن الالتزام بمبدأ المحايثة لا يمكن القبول بالمرجع بوصفه مفهومًا خارج عالم اللسان. وهذا الموضوع استرعى اهتمام النظريّة السوسيريّة ونظرية التواصل مثلما هو حاصل في اعتراف ياكبسون بوجود وظيفة مرجعيّة في السيرورة التواصليّة، وهي تحوير لمفهوم "التمثيل" لدى كارل بوهلر[78].

ثمّة طرحان متباينان بين التفكير اللسانيّ المحايث الذي لا يستدرج مفهوم المرجع إلى نسقه المعرفيّ؛ لأنّ اللسان ينماز بخصيصة الاستقلال عن العالم الخارجيّ، وبين التفكير الوضعيّ المنطقيّ الذي يقدس المعطى الحسيّ المتمثل في العالم "الواقعيّ". وهناك محاولات في الدلاليّات التي تحاول أن تتموضع في المنطقة الرماديّة، فتنظر إلى المرجع كونه موجودًا مؤلّفًا من الأشياء بوصفها موضوعات أو مدلولات بوساطة الكلمات. وهذا تعريف يورده معجم السيميائيّات ليونز[79]، ويُستخلص منه أن موضوعات العالم الخارجيّ ليست مطلوبة

في ذاتها من منظور هذه الدلاليّات. وهذا لا يفض الإشكال فأنّى للسان من حيث إنّه نسق سيميائيّ أن يقدم تصورًا للعلامة بمعزل عن المرجع الذي يحيلنا على العالم الذي يعدّ محصلة للنشاطيْن اللسانيّ والدلاليّ؟

وعليه لا يمكن أن يكون مفسَّرًا بوصفه مرجعًا مطلقًا خارج الألسن؛ ولكن على العكس من ذلك بوصفه لغة أخرى أو الأفضل أنه مجموع لغات أخرى، وعلامات أخرى، وأنساق أخرى، وعمليّات الدلالة. ومن ذلك نقرأ أيضا في مدخل "المرجع" في المعجم: ((إن العالم خارج اللسان ألا وهو "المعنى المشترك[80]" المخبر عنه والمؤسس من قبل الإنسان عبر الدلالة... مثل هذا العالم هو أبعد من أن يكون مرجعًا... وعلى العكس من ذلك فهو ذاته لغة ثنائيّة ومتوازيّة (biplanaire)، سيميائيّات طبيعيّة..إن مشكلة المرجع هي ليست مسألة تضايف بين سيميائيّتين...هي مشكلة سيميائيّة بينيّة" inter-sémioticité")[81]. وهذه المسألة تقتضي مرونة منهجيّة للقبول بتوطين بعض المفاهيم التي لا تتقبلها النسقيّة المحايثة؛ ولكن يبقى الإشكال قائمًا خصوصًا في الخطابات الأدبيّة المرجعيّة والتخييليّة على السواء، وأنّ مبدأ التصديق سيظل آلة يعرف بها المرجعيّ من التخييليّ على الأقل من الوجهة المنطقيّة.

إن بداهة عالم الفينومينولوجيّا تبقى الموضع الذي يُبْنَى فيه الوعي والخبرة الإنسانيّان، لكنه يملك أيضا تمفصلات داخلية التي ينبغي إعادة بنائها وتفسيرها. وكذلك، فالمرجع لا ينبغي النظر إليه على أنه معطى تجريبي قاعدي الذي يمكن أن يُمثّل على الأقل تمثيلا دقيقا بوساطة العلامات البانية المناسبة (ad hoc) (حسب إملاء الوضعية الجديدة) أو بوصفه شيئا ما بنته الألسن (حسب نظريّة سابير وورف) أو بوصفه كيانا لا علاقة له بالمحايثة اللسانيّة ذات النزعة البنويّة. إن العلاقة بين اللغة الطبيعيّة والعالم الطبيعيّ من وجهة النظر هذه ليست علاقة إحالة بين نسق العلامات ومجموع لا علامات؛ ولكن هي عبارة عن تضايف بين نسقين أو أكثر من أنساق العلامات والتحول السيميائيّ: وإجمالا: الترجمة "traduction".

ولهذا نفهم إذًا أسباب بعض الإثباتات في المقدمة العامة لكتاب في المعنى. إن بناء العلامات والألسن، وأنساق الدلالة ليست أبدا "مسخًا عجيبًا" لواقع غير دلاليّ يقال عنه

"خالص"، و"أبيض"...إلخ إلى وقائع دلاليّة: وعلى العكس من ذلك فكل بناء للمعنى هو دائما انتقال من علامة على أخرى وتحول موجه: فالمعنى إحالة "renvoi" ولكن أيضا "اتجاه". ((فالإنسان يحيا في عالم دال، فبالنسبة إليه إن مشكل المعنى غير مطروح، فهو مسلمة بالنسبة إليه، و"إحساس الفهم" فكله طبيعيّ. ففي عالم "أبيض"؛ حيث تكون اللغة تقريرا خالصًا من الأشياء والإيماءات، فلا يرى حاجة للسؤال عن المعنى. كل سؤال هو لسانيّات واصفة))[82]؛ وعليه فالمشكل لا يكمن في المعنى؛ بقدر ما يكمن في شروط تقطيعاته، وعمليّات بناء الدلالة: ((الدلالة ليس إذًا هذا الانتقال من مستوى لغوى إلى مستوى آخر في لغة مختلفة والمعنى ليس سوى هذا الإمكان من السن المتعال "transcodage"))[83]. فالخطاب السيميائيّ هنا مضطرب بين الولاء والبراء.

لا تتصف هذه الأفكار بالأصالة المطلقة. لقد سبق لكلود ليفي ستراوس أن اقترب من هذا التصور في تناوله لاعتباطيّة العلامة. إن دلالة الثقافات كما أشار إلى ذلك دو سوسير ليست نتاج محفزات طبيعيّة. صحيح أنها في كل الحالات تتأسس من دلالات سابقة - وبواسطة الرتق- تسهم خلسة في بناء السُنن الاجتماعيّة. لنأخذ مثالا بسيطا جدا على ذلك ألا وهو الضوء الأخضر: إذا كان ذلك اعتباطيًا فإن ((قواعد السير التي اكتسبت قيمتها الدلاليّة الخاصة باللون الأحمر واللون الأخضر))، فمن الصحيح أيضا أن هذا الاختيار يتأسس بأن اللون في ثقافتنا ((يكتسي دلالة الخطر، والعنف، والدم؛ وأن الأخضر يرمز إلى الأمل والهدوء والسير الهادئ للعمليّة الطبيعيّة مثل الحياة النباتية)). ولكن إذا أردنا أن نحوِّر النسق، ونأتي إلى الدلالة العكسية لهذين اللونيين ((فمما لا شك فيه فإن الأحمر سينظر إليه على أنه شاهد على الحرارة الإنسانيّة "دمه حام كما في التعبير الدارج"، ويُسر التواصل، فالأخضر ينظر إليه على أنه رمز بارد وسام))[84]. يوجد إذًا "رمزيّة تقليدية" التي هي ضرب من حفظ المواد التي هي دالة سلفًا على أن الثقافة يمكن أن تُستعمل لإنتاج الدلالات الجديدة (التي هي ليست جديدة كليًا، وكلن هي من وجوه إكراهات قبلية)). وما إن تضحى هذه الدلالة نشطة، فمن الممكن إنشاء بعديا رمزيّة "طبيعيّة" التي استُعْمِلت وأخرى لم تُستَعْمل.

ولهذا يمكن فهم المتصور الغريماسي للعالم الطبيعيّ المشتق بالضبط من البحث عن

الإيمائيّة. فالإيماءات- في اللحظة التي تُبْنى فيها ضمن أنساق التواصل من قبل البشر- تتفصل الأجزاء وحركات الجسم في فضاء يحيط بها؛ ولكن هذا الاصطفاء لهذه الأجزاء، وهذه الحركات (بوصفها مواد التعبير للتواصل الإيمائيّ) ليست مستقلة استقلالا كليًّا. إنها ترتكز تحديدا مثل الضوء الأخضر لليفي ستراوس حول قطع الدلالة الموجدة سابقًا، حول العلامات المنجزة فعلا حول الصور الحاملة للمعاني الممكنة. فمثلا إن التقابل بين ثقيل/ خفيف الذي يُستعمل فيه الرقص لإنتاج دلالاتها التي تمتلك سلفا قيمها في العالم الطبيعيّ، فالخفة كونها دالة على الفرح (والإبهاج)، والثقل كونه دالا على الإزعاج أو العكس. والشيء نفسه ينسحب على تقابلات ممكنة أخرى مثل الثبات/الحركة، الفعل/الإجراء، بداية/نهاية، أعلى/أسفل، استرجاعي/ استباقي...إلخ. وعند استخدامها في سُنن التواصل الإيمائيّ، يُعاد إضفاء الدلالة عليها، وتكون حاملة لمعان جديدة جزئيا.

ولهذا السبب- يقول غريماس- لا يجب الخلط بين الممارسة الجسميّة (التي هي مسألة خاصة بالممارسات الملفوظة من قبل ذوات الفعل، أجسام تتحرك) والتواصل الإيمائيّ (الذي هو على العكس من ذلك فعل التلفظ المنتج من قبل أجساد باثة إلى مستقبلين يقومون بتفسيرها). ففي الحالة الأولى يكون مشكل المعنى بوصفه اتجاها. إن دلالة الأفعال الجسميّة تنتجها ذات تمتلك "برامجها الإستراتيجيّة" التي تشبه "البرامج الصوتيّة" التي تحول المادة الصوتيّة إلى شكل تعبير يّلسانيّ "البرامج السرديّة"، كما تصنع عقدة ربطة العنق أو العمل في مصنع. في الحالة الثانية هو مشكل المعنى بوصفه "إحالة renvoi". فالتواصل ينتج من قبل المرسل –على الأقل يكون قصديّا"، وينقل مرسلات إلى مرسل إليه مثال: إيماءة الإشارة الاصطناعية ((أو اللغة الطبيعيّة منظور لها على أنها سنن لمحتوى مرجعيّ))[85].

ليس المشكل في الاحتفاظ بالتمييز بين الممارسات والإيماءات، وبين المواقف (العادات) غير الدالة والتواصل الإيمائيّ الحقيقيّ كما هو الحال بين كرستيفا وراستي. وعلى العكس من ذلك ينبغي أن نلاحظ حسب غريماس بأن الجسم يمكن أن يدل في مستويين مختلفين: الخاص بالملفوظ، والخاص بالتلفظ: ((ففي الممارسة "البراكسيس" الإيمائيّة يكون الإنسان ذات الملفوظ في حين يعد" هو" بالنسبة إلينا. إن،" أنا" عون الملفوظ، ذات الوظائف التي تؤسس سلوكها: في الإيماءة التواصليّة، الإنسان هو ذات التلفظ: إنه "أنت"

بالنسبة إلينا، ولكن "أنا" بالنسبة إلى نفسه، في حدود التي يبحث بحثا يائسًا لإنتاج الملفوظات وإرسالها))[86].

يمكن أن تستخدم دراسة غريماس حول شروط سيميائيّات العالم الطبيعيّ للتوجيه، وإذا جاز التعبير سلبيًّا "en négatif"، ضد بعض التوجيهات الراهنة في البحث عن الدلالة. إنه يعبر في الواقع قبل الحرف ضد كل شكل من أشكال النزعة الطبيعيّة التي - وبطريقة أقل بديهية- تريد أن تفرض حضورها في نظريّة الدلالة. لا يوجد هناك أي شيء طبيعيّ في اللغات الموصوفة بالطبيعيّة و- كما رأينا- لا يوجد أي شيء طبيعيّ أيضًا في العالم الموصوف بالطبيعيّ، عالم الحس المشترك القابل للتقطيع ثقافيّا؛ إذ لا يستطيع السيميائيّ أن يفتي في البنية السطحية للعالميْن الفيزيائي أو الكيميائي العميقيْن.

إذا كانت النزعة الطبيعيّة تهيمن اليوم على أغلب برامج البحث في العلوم الاجتماعيّة، بما فيها بعض أشكال السيميائيّات؛ فإن الدرس الذي تركه لنا غريماس أكثر وضوحًا: فالمعنى موجود هنا قبل أن يُفهم فهمًا إنسانيّا واجتماعيّا. إن مشكلة كل ثقافة، وكل مجتمع، وكل خطاب هي في جعلها في خدمة الدلالة، وتقطيعها في الوقت نفسه في مستويين ضروريّين للتعبير والمحتوى.

ولكن تقطيع المعنى يراد منه وضعه في خدمة الدلالة، وهذا لا يعني نقله داخل لغة أخرى أو سنن آخر، وترجمته من قبل بعض أنساق الدلالة. ومن أجل ذلك فإن ما قدمه غريماس يسمح لنا بالذهاب عكس كل الفرضيات النظريّة التي تركز على "تكوين" المعنى - الأكثر انتشارًا اليوم. لا ينبغي الخلط -كما نعلم- بين التوليدية والتكوينية؛ إذا كان من الممكن الحديث عن اختلاف مستويات الدلالة، على الأقل العميقة، والمجرّدة- هذا لا يعني أن "العمق" هو وراء أصل (الزمني وكذل المنطقي) المعنى؛ ولكن بالأحرى هو الذي يستطيع أن توفر الموافقات الملائمة للإمساك به. فحسب غريماس فإن مشكلة الأصل غير مطروحة: كل تساؤل إنسانيّ حول العالم هو دائما لسانيّات واصفة (أو سيميائيّات واصفة) وأن الفهم يعني نقل أو رجع القول وإعادة البناء بوساطة علامات أخرى. وهذه الصرامة العلميّة في الالتزام بالمحددات النظريّة للسيميائيّات السرديّة تقيم سياجًا إبستيمولوجيًّا قد يصعب إدماج مفاهيم جديدة ومن قطاعات معرفيّة أخرى.

ومن حيث الإشارة الثالثة القيّمة في الاتجاه السلبيّ: فكل الفرضيات التي تحاول إيجاد داخل الجسم الإنسانيّ المكان الأساس؛ حيث يُبنى المعنى الموصوف بـ" الشفقي auroral"، شيء مثل الصرخات الإنسانيّة "vagissement" الأولى الدالة لا تمتلك أساسًا إبستيمولوجيًا. فالجسم ليس شيئًا يندرج بين الذي يقبل التقطيع والذي لا يقبل التقطيع، والمستمر والمنفصل، والمعنى والدلالة؛ ولكن يحضر ذلك دوما في الدلالة؛ إذ لا يوجد انفتاح أصليّ لذاتيّة الجسم متبوع بتحولات على الأقل مترابطة منتظمة ذات وظيفة اجتماعيّة. إن أخذ الجسم في الحسبان هو في البدء التفكير فيه بوصفه عنصرًا أو سيرورة اجتماعيّة لها مصير ثقافيّ يأتمر بالقيم والأهداف المحددة، ويسهم في تشكيلها أو تدميرها.

إذا ما قلنا بأن الذاتيّة الإنسانيّة مجهزة بقاعدة جسميّة هذا لا يعني أنها تؤسس الطبيعة بوصفها شرطًا للإمكان الكونيّ للتحولات المتتالية –الفرديّة والجماعيّة. وهذا يعني على العكس منذلك بأن الذات تُبْنى ويعاد بناؤها بدءا من التجارب ما قبل إلى المحافل البيذاتيّة، والعكس بالعكس صحيحًا. كلاهما يمتلك مصفوفة جسميّة. لا يوجد بين الذاتيّة والجسميّة التزام مطلق وثابت؛ ولكن يوجد عقد جزئيّ ومؤقت. هناك انخلاع "dislocation" بناء يخلق وفي الوقت نفسه يضعف، هويّة الأفراد والمجموعات الاجتماعيّة. أنا جسميّ، ولكن في الوقت نفسه أملك الجسم الذي به أعرف جزئيًا نفسيّ، ولكن لا أفوض المسؤوليّة الكاملة لوجودي وتجاربي. وعليه فإنّ للجسم حظوة عرفانيّة.

خلاصة:

إن الأسس النظريّة السيميائيّة التي أتينا على ذكرها تجعل موضوع العالم الطبيعيّ قابلًا للمعرفة والفهم والتأويل[87]؛ وذلك بتضافر سيميائيّات الإيماءات (sémiotique des gestes) والسيميائيّات الصُورية (sémiotiquefugurative) وسيميائيّات الثقافة (sémiotique des cultures). كما أنها دفعت السيميائيّات إلى إلحاق الإيماءات ودمج الإنتاجيّة في المشروع العلميّ السيميائيّ. وهذا يتطلب إعادة بناء السياج الإبستمولوجيّ للسيميائيّات والخروج من "وهم" النزعة العلميّة (العلمويّة)، وتخفيف"جرعة" المحايثة في خلق مرونة وفسح المجال لهجرة المفاهيم، وتوطينها داخل العدّة النظريّة.

تبدأ خطوة إعادة البناء بنقد المتصورات التي تسيّج الإطار النظريّ للسيميائيّات

مثل مفهوم "المحايثة" و"النسق"و"السُنن" و"المرجع"... ويمكن أن نلفي أيضًا إكراهات الشروط المسبقة لعدد من الأفكار التي طرحها غريماس بخصوص سيميائيّات العالم الطبيعيّ، ولم تحظ بوافر التحليل في معجم السيميائيّات. من الواضح أن هذه السيميائيّات استُثمرت على استحياء في سيميائيّات الأهواء والسيميائيّات التوتريّة، وسيميائيّات الثقافة والسيميائيّات الصُوّريّة؛ لكن مآلاتها لمّا تتضح في النتائج المأمولة. ولعل بعض البحوث السابقة سيطاولها غبار النسيان كما كان الشأن بالنسبة إلى مفاهيم سيميائيّة، وبعضها اللاحق قد يندمج ضمن أفق إبستمولوجيّ مغاير يقود النظريّة السيميائيّة إلى آفاق جديدة.

إنّ قراءة فاحصة لبعض البحوث التي عالجت سيميائيّات العالم الطبيعيّ دون أن ندّعي الإحاطة علمًا بها؛ تبرز أن مسألة العالم الطبيعيّ ذات صلة بوقائع اجتماعيّة وبلغة الأجسام وطرائق تلفظها الجماعيّ وإدراكها المحسوس داخل فضاء التشكيلات الثقافيّة والقوانين الذاتيّة، والممارسات الاجتماعيّة والمحافل ما قبل الذاتية، وهي ذات صلة بالمتصورات الفينومينولوجيّة.

انطلاقا من الشروط النظريّة القاعديّة من أجل بناء سيميائيّات العالم الطبيعيّ ينشأ إمكان الدراسة العلميّة للإيماءات، ومع ذلك فإن البحث السيميائيّ المتتابع لم ينطلق انطلاقة حقيقيّة[88]. إن قيمة الشروط التي وضعها غريماس لسيميائيّات العالم الطبيعيّ التي أتينا على مدارستها تعدّ إذًا في الوهلة الأولى ذات نمط تاريخيّ شأنها شأن دراسة جوليا كرستيفا، كما هي لحظة حاسمة من أجل إعادة التفكير في مكتسبات السيميائيّات اللسانيّة البنويّة والتوليديّة التي كانت تمثل السياج الإبستيمولوجيّ للغريماسيّة الخاضعة للوضعانيّة المكبّلة بوهم العلمويّة. ولعل ما تُثمن به هذه الإنجازات هي التفكير فيما بعد الغريماسيّة، ودون أن نشايع رأي جاك جنينيسكا في مشروع السيميائيّات بأنه "رتق علميّ" أو اختزاله في المعطيات السيميائيّة (doxa sèmiotique)[89]؟؟؟

الهـوامـش:

1 - ابن القيم الجوزيّة، الصواعق المرسلة في الرد على الجهميّة والمعطلة، الفصل الرابع عشر، تح. وتخ. وتع. علي بن محمد الدخيل الله، الرياض، دار العاصمة، ص. 342.

2 - المصدر السابق، ص. 343.

3 - التعريفات، مادة [الطبيعيّة].

4- Èmile Benveniste,Problèmes de linguistique générale, Paris, éd. Gallimard, 1966, p. 30.

5- Voir A.J. Greimas et J.Courtés, Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, t. 1, Paris, éd. Hachette 1979, [référent].

6 - ألجيرداس ج. غريماس و جاك فونتيني، سيميائيات الأهواء: من حالات الأشياء إلى حالات النفس، تر وتق. وتع. سعيد بنكراد، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط. 1، 2010 ص. 65.

7- Paysages, Expérienceet Existence: Pour une sémiotique du monde naturel, in Semiotiche, n° 1/03, Gian Paolo Caprettini, dir., Turin, Anan ke, 2003, p. 1.

8- A.J. Greimas et J.Courtés, Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, [naturelle (sémiotique)].

9- Ibid., [référent].

10- Ibid.,(référence).

11- Ibid.,(référence).

12 - الجسم في التعريفات للجرجانيّ (جوهر قابل للأبعاد الثلاثة، وقيل: الجسم هو المركب المؤلف من الجوهر).

13- Julai Krestiva, Le geste, pratique ou communication?. In:

Langages, 3e année, n°10, 1968, p. 49.

14- A.J. Greimas,Conditions d'une sémiotique du monde naturel, In: Langages, 3e année, n°10, 1968. Pratiques et langages gestuels, p. 8.

15- A.J. Greimas et J.Courtés, Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage,op. cité p. 233.

16-A.J. Greimas,Conditions d'une sémiotique du monde naturel, In: Langages, 3e année, n°10, 1968. Pratiques et langages gestuels, p. 16. بتصرف

17 - أ. ج. غريماس وج. فانتاني، سيميائيات الأهواء، ص. 54.

18 - أ. ج. غريماس وج. فانتاني، سيميائيات الأهواء، صص. 54-55.

19- A.J. Greimas et J.Courtés, Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage,[nature].

20 - أ. ج. غريماس وج. فانتاني، سيميائيات الأهواء، ص. 222.

21- Paolo Fabbri, Considérations sur la proxémique, in Langages n° 10, 1968, p. 66.

22- Voir Pierre Oléron, Études sur le langage mimique des sourds-muets. I. Les procédés d'expression. In: L'année psychologique. 1952 vol. 52, n°1. pp. 47-81.

23 - ينظر أعمال هرمان باريتH. Parret، وب. بودونP. Boudon ، وج. فانتاني J.Fontanille، وب. ويلّيتP. Ouellet .

24 - ينظر إلى هذا العالم على أنه عالم من المؤسسات الرمزية.

25-A.J. Greimas, Conditions d'une sémiotique du monde naturel, In: Langages, 3e année, n°10, 1968. Pratiques et langages gestuels,

p. 9.

26- الراغب الأصفهاني، الذّريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق ودراسة: أبو اليزيد العجمي، القاهرة، دار الصحوة، دار المنصورة، 1985، ص. 417.

27- لقد وصف صاحب التعريفات النفس الأمارة بالسوء تلك التي تميل إلى الطبيعة البدنية، وتأمر باللذات والشهوات الحسيّة، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية، فهي مأوى الشرور، ومنبع الأخلاق الذميمة.

28- Jacques Fantanille et Claude Zilberberg, Tention et signification, éd. Mardaga, 1998, p. 225.

29-A .J. Greimas et J.Courtés, Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage,t. 1, Paris, éd. Hachette 1993 [figuratif].

30-A .J. Greimas et J.Courtés, Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage,t. 1, Paris, éd. Hachette 1993 [figuratif].

31 - الجرجانيّ، التعريفات، مادة [البشريّة].

32- Denis Bertrand, Précis de sémiotique littéraire, Paris, éd. Nathan,2000, p. 97.

33- Voir Paysages, Expérience et Existence: Pour une sémiotique du monde naturel, in Semiotiche, n° 1/03, Gian Paolo Caprettini, dir. Turin, Anan Ke, 2003, p. 2.

34- Ibid.

35 - R. L. Birdwhistell, L'analyse kinésique, trad. Michéle Lacoste, In: Langages, 3e année, n°10, 1968. Pratiques et langages gestuels, p. 103.

36 - Ibid., p. 104.

37- Julai Krestiva, Le geste, pratique ou communication?. In:

Langages, 3e année, n°10, 1968, p. 64.
38- R. L. Birdwhistell, L'analyse kinésique, trad. Michéle Lacoste, In: Langages, 3e année, n°10, 1968. Pratiques et langages gestuels, p. 106.
39 - Ibid., p. 106.
40 - Ibid., p. 106.
41 - الجرجانيّ، التعريفات، مادة [الحركة الطبيعيّة].
42 - R. L. Birdwhistell, L'analyse kinésique, p. 106.
43 - Marc-André Vaudreuil, Le problème du monde naturel, et de la phénoménologie de Jan Patočka, Mémoire de la maîtrise en phisolophie, Canada, Université du Québec à Montréal, 2006, p. 32.
44- Robert Cresswell, Le geste manuel associé au langage, In: Langages, 3e année, n°10, 1968. P. 121.
45- J.Kristeva,Le geste, pratique ou communication?. In: Langages, 3e année, n°10, 1968, p.56.
46- Ibid.
47 - Ibid.
48 - فرانسوا راستيي، فنون النص وعلومه، تر. إدريس الخطاب، الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال للنشر، ط. 1، 2010، ص. 349.
49 - سيميائيات الأهواء: من حالات الأشياء إلى حالات النفس، تر. سعيد بنكراد، ص. 47.
50- Jean-Jacques Boutaud, Du sens, des sens. Sémiotique, marketing et communication en terrain sensible, », Semen [En ligne], 23 | 2007, mis en ligne le 22 août 2007, consulté le 24 mars 2017.

URL : http://semen.revues.org/5011.

51- Ibid.

52- VoirLe geste, pratique ou communication?. In: Langages, 3é année, n°10, 1968, p. 49.

53- Voir François OST, La crise écologique : Vers un nouveau paradigme/ in La crise environnementale, C. Larrére, R. Larrére, Paris, éd. INRA éditions, coll., 1997, pp. 39-56.

54- Voir Simon CHARBONNEAU, comptre-rendu d'ouvrage Lanaturehors la loi: Ou l'écologie à l'épreuve du droit du Fronçois OST, De la technique, Bulletin n0 12 - Hiver 1997/1998, p. 15.

55 - Voir Paysages, Expérience et Existence: Pour une sémiotique du monde naturel, in Semiotiche, n° 1/03, Gian Paolo Caprettini, dir. Turin, Anan Ke, 2003, p. 20.

56 - ترجم إلى اللغة العربية من قبل م. إ. ق. بمجلة العرب والفكر العالميّ، بيروت، ع. 8، 1989، ص. 77- 101.

57- A. J. Greimas, Du sens ?1970, p. 91.

58 - إقبال، محمد، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص 174.

59 - واستشهدوا بقول الشاعر:

ترى النَّاسَ إن سرنا يسيرونَ خلفنا ... وإن نحن أومأنا إلى النَّاس وقّفوا

وكذلك قول القَنَانِيُّ:

فقُلْنَا السَّلامُ فاتَّقَتْ من أَمِيرِها ... فما كانَ إلاَّ وَمْؤُها بالحَوَاجِبِ

وأنشد ذو الرمّة:

قياما تذب البق عن نخراتها ... بنهز كإيماء الرؤوس الموانع

أورد الأخفش في كتابه الموسوم بالقوافي:

إذا قل مال المرء قل صديقه ... وأومت إليه بالعيوب الأصابع

60 - تاج العروس مادة [ومأ].

61- Julia Kristeva, geste, pratique et communication, in Langages n° 10, 1968, p. 48.

62- Paolo Fabbri, Considérations sur la proxémique, in Langages n° 10, 1968, p. 5.

63 - دراسة استعمال الفضاء من قبل الكائنات الحية في علاقاتها ودلالاتها التي تتمخض من ذلك.

Étude de l'utilisation de l'espace par les êtres animés dans leurs relations, et des significations qui s'en dégagent.

64- Paolo Fabbri, Considérations sur la proxémique, in Langages n° 10, 1968, p. 65.

65 - G. L. Trager, Paralanguage : a first approximation, Studies in linguistics, 13, 1958.

66 - Proca-Ciortea Vera, Giurchescu Anca. Quelques aspects théoriques de l'analyse de la danse populaire. In: Langages, 3eannée, n°10, 1968. pp. 87-93.

67- A. J.Greimas, « Introduction » à Essais de sémiotique poétique, Paris, Larousse, 1972.

68- A. J.Greimas, Sémiotique figurative et sémiotique plastique, in : Actes sémiotique, Documents 60, 1984.

69 - Rastier François. Comportement et signification.In: Langages, 3e année, n°10, 1968, pp. 81-82.

70 - J.Kristeva,Le geste, pratique ou communication?. In: Langages,

3e année, n°10, 1968, p. 48.

71 - Ibid., p. 48.

72 - J.Kristeva, Le geste, pratique ou communication?. In: Langages, 3e année, n°10, 1968, p. 50.

73-A.J. Greimas, Du sens, Paris, éd. Seuil, 1970, p. 49.

74-A .J. Greimas et J.Courtés, Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage,t. 1, Paris, éd. Hachette 1979, p. 233.

75- Voir A .J. Greimas et J.Courtés, Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, t. 1, Paris, éd. Hachette 1979, (culture-nature).

76- Ibid., (référent).

77-A.j. Greimas, Du sens, Paris, éd. Seuil, 1970, p. 52.

78 - ينظر أحمد يوسف، سيميائيات التواصل وفعاليّة الحوار: المفاهيم والآليات، جامعة وهران/الجزائر، منشورات مختبر السيميائيات وتحليل الخطابات، ط. 1، 2004، ص. 77.

79-Voir A .J. Greimas et J.Courtés, Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, (référent).

80 - أي المنطق السليم.

81- Voir A .J. Greimas et J.Courtés, Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, t. 1, Paris, éd. Hachette 1979, p. 312.

82-A.j. Greimas, Du sens, Paris, éd. Seuil, 1970, pp. 12-13.

83-Ibid., p. 13.

84 - كلود ليفي ستراوس، الأنثروبولوجية البنوية، 1958، ص. 108.

85-A.j. Greimas, Du sens, Paris, éd. Seuil, 1970, p. 63.

86-A.j. Greimas, Du sens, Paris, éd. 1970, p. 67.
87- Voir Paysages, Expérience et Existence: Pour une sémiotique du monde naturel, in Semiotiche, n° 1/03, Gian Paolo Caprettini, dir. Turin, Anan Ke, 2003, p. 3.
88- Jean-Marie Floch, Sémiotique, marketing et communication: Sous les signes. Les stratégies, Paris, éd. PUF, 2002, ch. II.
89- Michael Schulz, De Greimas à Jacques Geninasca: Pour une sémiotique de la parole, Actes sémiotiques, n° 120, 2017.